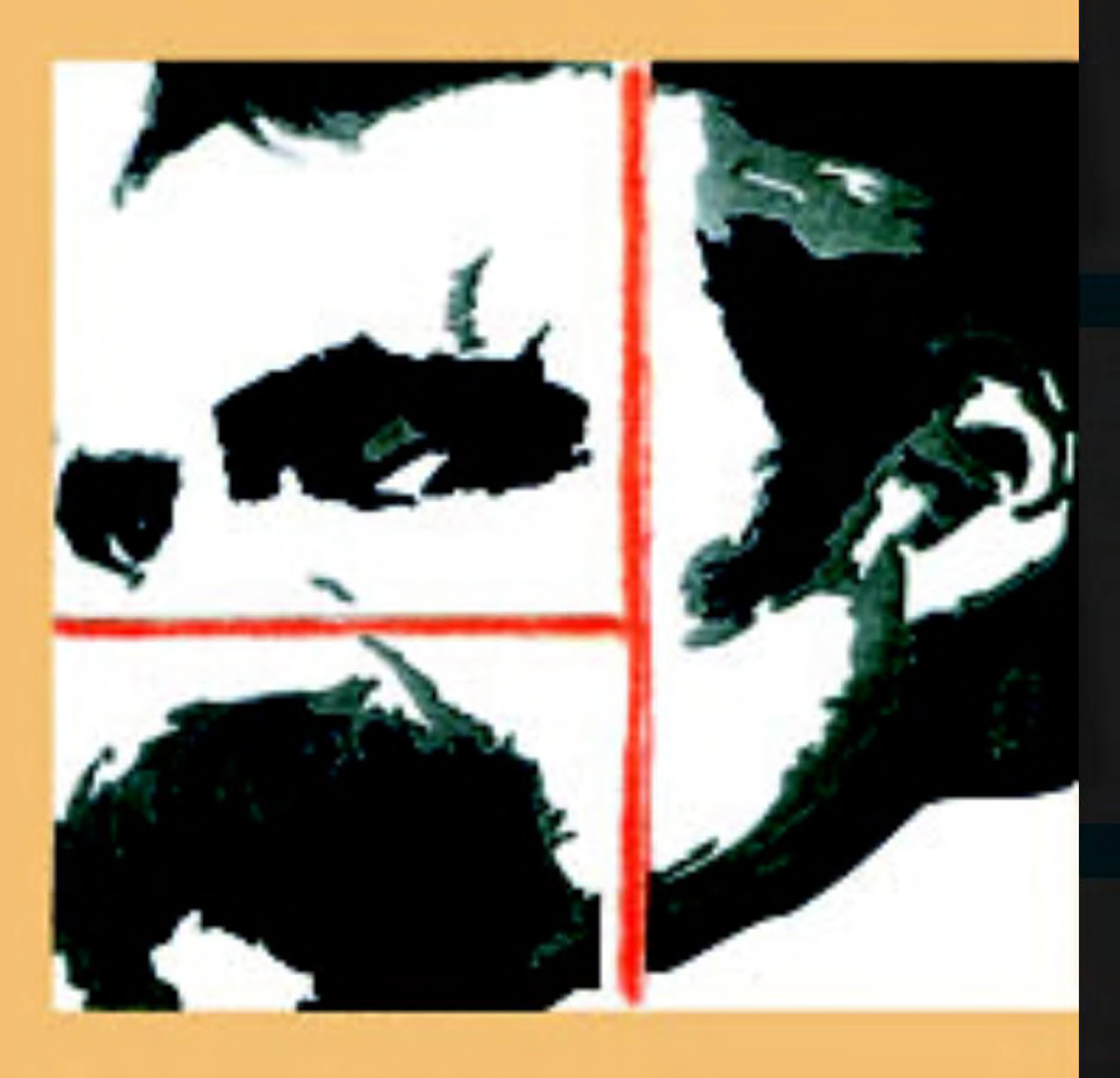
نديم نجدي

إضاءات نيتشوية

منسيات فاضحة







إضاءات نيتشوية
منسيات فاضحة

نديم نجدي

إضاءات نيتشوية

منسيات فاضحة

II

دار الفارابي

الكتاب: إضاءات نيتشوية ـ II
المؤلف: نديم نجدي
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت – لبنان
ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2013
ISBN: 978-9953-71-922-1

مقدمة

كنت أفضّل أن أترك هذا الكتاب بدون مقدمة أو استهلال، لا لأكسر القاعدة المتبعة في تأليف الكتب، وليس لأني لم أجد داعياً أصلاً، التمهيد لما تجب قراءته رأساً، بدون مقدمات كتلك التي من شأنها أنْ تُفسد على القارىء متعة استكشاف مجاهل نصٍّ مباغت، لا أحبّذ سرد قصّته، ولا أفهم الجدوى مِنْ اختصاره في ملمح سريع، أو صورة مبتسرة، لن تفي النصّ حقّه بالتأكيد. فكيف مع هذه الحال، إذا كان الكتاب كلّه عبّارة عن نصوص متنوّعة، لا رابط فيما بينها سوى الروح التي زفرت آلامها، عبر شذرات ساخطة، مشاكسة. رامت إلى التطهر مِنْ قهر غصّة مرّة، أصابت أفراداً مثلي، شردوا عن السرب، بعد أنْ ملّوا السير بهدى غرائز القطعان، فآثروا التفرّد في التمرّد على استكانة الجماعة المؤمنة بمعتقدات ومبادىء خاوية مِنْ أسباب التقديس والتبجيل عل نحو ما تكبّل به عقل اتباعها المعميون عن النظر الحرّ والجريء إلى ما في حقيقة الشيء... مِنْ شيء طبيعي وواقعي يجب

ألّا يُقدّر بمثل ما تسامى عند العامة إلى مصاف ميتافيزيقي، استحال فيه الكلام الزمني، مقدسات لا تُمس، والطلاسم تعويذة شفاء وفرج.

ولأن نيتشه كان ضد كل أصناف المعيارية وتوابعها، استلهمنا حسّ النقد عنده وشياً، وتهكمّه الفلسفي غمزاً، واستعرنا منه مطرقة عقله الثقيلة على عقل البسطاء والسذّج، وذلك تلبية لنداء روحه، واستجابة لدعوته كي نستكمل هدم العمارات القيمية الشامخة إلى أعلى مِنْ ناطحات سحاب عصر العولمة.

لم يغدُ نيتشه نبياً، ولم يشأ أنْ يصير داعيته مبشّراً بأي دين، فقرر أن يقوّض بنيان الدين عن بكرة أبيه، بعد أنْ خلُص إلى أنه هو مَنْ يشكل علّة بذاتها أمام أي انطلاقة جديدة، أو بالأحرى، هو العقبة الأساس أمام قيامة إنسان قوي ممتلىء بعنفوان التحدي في حياة زاخرة بكل أنواع المرح والفرح. فالدين عند نيتشه أصل الداء، لأنّه يقترن بدعوات أخلاقية تردع الإنسان عن أهوائه، وتأمره بالتخلّي عن المغامرات المحفوفة بخطر السقوط عن قمم الجبال، ويموت. فالأديان فرضت على الإنسان أن يعيش تحت... أن يقبع في القعر خوفاً على حياته، لتغدو حياته كلها بدون قيمة وبلا معنى...، هل من معنى لكائن يرتعد خوفاً مِنْ الإقدام على مغامرة النبش والتمرّد، والثورة والمشاكسة وكل ما يحقّق كينونة إنسان أفضل، هذا إن صعد إلى فوق ونظر مِنْ هناك إلى الناس واهتمامهم بقضايا، تغدو صغائر لا طعم لها قياساً إلى مذاق النجاح في الوصول إلى الأعالي، حيث يستوي فيها إنسانه جنباً إلى جنب مع آلهة لا يخافون ولا يأبهون طالما أنّهم خلّاقون.

لم يقصد نيتشه ديناً بعينه، ولا هو ضد الدين كدين، انما كان ضد مفاعيله النفسية والسلوكية على إنسان صار خائفاً خانعاً، لمشيئة قدر إلهي متحكم بمصير كائنات مستلبة خوفاً مِنْ ألّا يرضى الإله على جموع المؤمنين بواجب طاعته، الشاكرين على نعم رضاه صبحاً ومساءً.

والجدير ذكره، أنّ نيتشه لم يسع إلى وضع معيار صارم من أجل بناء منهج فلسفي معين، لكن تدميراته الممنهجة للعمارة الفلسفية كلّها أدّت إلى تداعي بنيانها المتصل فيما بين طبقاتها ومراحلها وروادها وأعلامها جميعاً بصلة خيط رفيع، جمعت أفلاطون بالمسيحية، وسقراط بالإرث الدوغمائي لكل الأديان التي نصّبت حاجزاً صلباً بين النفس والبدن ، والعقلانيين بالروحانيين.

بهذا المعنى، يمكن القول إنّ نيتشه هو مَنْ قضى، وبضربة معلّم، على فلسفات تنتمي، في رأيه، إلى مسطح مُتهالك خدم وظيفة الاجتماع البشري آلاف السنين بطريقة أدّت إلى خلق عاهات جسدية وآفات نفسية، وجب علاجها بالتخلّص مِنْ أسبابها؛ كما لو أنه لم يفعل الكثير، تجرأ فقط على قصّ خيط السبّحة فانفرط العقد وتبعثرت حبات الفلسفة المنعقدة بحبل دنس كريه، صنعه لهم سقراط، فاحتجزهم مدّة طويلة ضمن النطاق الذي أطلق فيه توجيهاً نحو أخلاق الفضيلة، فكان بنتيجتها أن استولد إنساناً ضعيفاً لا إرادة له، لأن عليه أنْ يذعن لإرادة ميتافيزيقية، ويتخاصم مع نفسه إرضاء لنفسه.

لم يفصح نيتشه عن مراده، ولعلّه كان منهمكاً ومنذ اللحظة الأولى، بتقويض دعائم الإرث العظيم للفلسفة، بما لم يتح له المجال

لتقديم بديل، ولربما كان هو لا يؤمن أصلاً ببدائل ذات طبيعة وظائفية، طالما أن إنسانه الأعلى قوي، فإذا بمستطاعه أنْ يواجه تحديات عريه في عالم جديد، سوّاه نيتشه بالأرض، فخلا بعدها مِن المُسبقات الدينية والمحرّمات الأخلاقية التي كانت قد تسبّبت بانفصامه الدهري، بما أدى إلى ولادة إنسان جديد ظهر مع أركيولوجيا ميشال فوكو. وغراماتولوجيا جاك دريدا، وهيرمينوتيكا بول ريكور. ذلك أن الكلام عن الفلسفة ما قبل نيتشه غير الكلام عمّا بعدها... لاسيما وأنه دمغ القرن العشرين بكل أسباب الانقلاب الجذري في النظر إلى الوقائع، سمّاه البعض تشظياً، تيهاً وتبعثراً، لأنه لا يريد أنْ يُصدق طبيعة وجوده في عالم، لا حقيقة ثابتة فيه، ولا غاية ميتافيزيقية لحركته، ولا سرّ إلهي يحكمه؛ فهذه كلها إلهاءات مِنْ شأنها أن تخفّف عن كاهل البشر منغّصاتهم، وتريحهم مِنْ همّ الاعتراف بنقصانهم وانطفائهم في ومضة خاطفة، كما لو كانوا غير موجودين.

تخيلت نيتشه يحمل مطرقته ويتجول في عصرنا الذي لا يشبه عصره، ليجهز على ما تبقى مِنْ نتوءات الإرث القديم، بعد أن ولد إنسان جديد، كما بشّر فعلاً، لكنه صار أكثر استلاباً إلى ما صيّره خاوياً من الذوق، أمام ما يخضع له من تدجينات سوق العولمة التي حوّلته بدورها إلى مستهلك للسلع ومتلق لها، يتلقّف رغبات الشركات الرأسمالية القوية كما لو أنها رغباته، يرضخ إلى ما تبتغيه الرساميل التي أسرت الأرض وما عليها. حتى التربية المدرسية أضحت موجهة باتجاه تخريج عقول مؤطرة ومغلقة على ما تريده الشركات من الرجل

المتعلّم. والمتعلّم هنا يجب ألّا يعرف، لئلا يصير قوياً وبمقدوره التمرّد على السيستام المهيمن في الكلام والسلام، في السياسة والاجتماع. لقد ضاق هامش الاختيار في عصرنا بما لا يُقاس مع ما كان سائداً في عصر نيتشه، وبات السؤال الفلسفي المطروح بقوّة: هل الإنسان كائن حرّ، أم كائن استهلاكي؟ بحيث لم يعد من مساحة للمفاضلة في اختيار ما يريد، طالما يعيش في ظلّ عالم قرّرته سلفاً إرادة الأقوياء، كمثل ما تنبأ به فيلسوفنا، بأنّ الحياة للأقوى، لكنّ معيار القوّة صار ممسوخاً اليوم في رجال يجيدون مسح الجوخ والتنصّل مِنَ المسؤوليات وانتهاز فرصة الانقضاض على جهد غيرهم. إن كل ذلك جعلني أنحاز إلى ضعفاء هذا العالم وفقرائه المعدمين، فهؤلاء أكثر صفاءً مِنَ البراغماتيين المسيطرين الذين يستهزئون بقيم ومبادىء، مثل الإخلاص، والخجل والوفاء وكل ما صار تهكمياً عند أسياد هذا العصر في السياسة والاقتصاد، فبقدر ما تتقن الغدر والنفاذ بسرقتك مِنْ براثن القانون، يُصَفَّق لك، كرجل أعمال ناجح وشاطر. ويصير لك أتباع وجمهور، وبمقدورك عندها أن تصير كرّازاً، يقود قطعاناً من العميان نحو ما يصبّ في مصلحة بقائهم عمياناً إلى أبد الآبدين.

فللقوّة سبيل يتفق مع ما يكدّر عيشي في حال جبنت عن مشاركة رفاقي خطر معركة طاحنة، ولعل القوّة سبيل مَنْ ينقضّ على تعب غيره بدون رحمة، فليس لهذا الصنف الحاكم من قادة السياسة والاقتصاد روادع أخلاقية، سبق وأن كشف نيتشه عن سبب تمسك الضعفاء بها،

تعويضاً عَنْ عجزهم في الوصول إلى ما يتمتع به الأقوياء مِنْ سلطة تشكل بالنسبة إليهم غاية بذاتها. فإذا كنا كلنا ميتين لا محالة ولو بعد حين، فالحكاية كلها تتمحور إذاً، حول الرضى عن الذات. فبهذا المعنى، الأقوياء هم مَنْ صمدوا أمام إغواءات كثيرة بما فيها الإيمان للفوز بنعيم جنة أبدية، هم الذين لم يخونوا أنفسهم، وعاشوا متّسقين مع ذواتهم على نحو ما انعقد في ثيمة الدعوات التبشيرية كلّها مِنْ زرادشت... حتى الإسلام... «الطبيعة لا تكون خيّرة إلا إذا منعت صاحبها أن يعمل بغيره ما لا يحب أنْ يُعامل به».

لقد حاولت بدوري في كتابة الجزء الثاني من إضاءات نيتشوية أن أتجوّل في أروقة تفكير الحاضرين وإيمانهم بمبادىء وقيم، تضمر ما لا يعلنه مفوهو السياسة وخطباء الدين والاجتماع، حيث تركت نفسي على سجيتها تخوض في مزاعم الحب أو العشق هنا، وتتمثل بوضعية ديكتاتور يتحدّث عن الديموقراطية، هناك؛ من دون تبويب للموضوعات، ولم أكلف نفسي ترتيب قضايا متنوعة، سبرت غورها بحسّ فلسفي لا يخلو من التهكم على ما قد تؤول إليه مقدساتنا ومحرّماتنا، إذا ما نظرنا إليها مِنْ زاوية نيتشه الذي لم يقصد السخرية بقدر ما قصد الإضاءة على الجانب المعتم من إيماننا بقدسية مريم العذراء مثالاً، مِنْ دون أنْ نتصوّر ماهية وصالها بالرب لحظة الحبل...! لنجد أنّ طبيعة الأشياء ساخرة إذا ما أعدناها إلى أصلها البريء مِنْ إضفاءاتنا التبجيلية، مِنْ إضافاتنا التي حوّرت الحقائق وأوّلتها على نحو يتفق وحاجتنا إلى تطويب قديسين وآلهة، عندها نذعن لقدر

ضعفنا الوجودي أمام هالة ما صنعناه لأنفسنا بأنفسنا، ونصير خائفين من لمسهم ومِنْ نبش قبور القديسين والآلهة، خوفنا من أن يستعيدوا أصلهم البشري، فيموتون.

إضاءات نيتشوية على كل ما صادفته يستأهل الإنارة عليه من زاوية مغايرة لزاوية الرؤية الاعتيادية. وبما أن النقد الفلسفي بعد نيتشه، اتخذ منحىً تواشجياً مع الحسّ الأدبي، نجد أن ثمّة شذرات في الكتاب، ذات طابع تأملي هاتك للأعراف السائدة على ما يجعل مِنْ بعض البداهات غير المُفكّر في أصلها، مسائل إشكالية، وبالعكس بعض المشكلات التي تبدو على درجة من التعقيد يمكن حلّها ببداهة النظر إليها كما هي...، مِنْ دون جزع مِنْ هالة ما صنعناه بأيدينا، ولا خوف مما يكتنف، بعض الأقبية الترابية مِنْ أسرار، حوّلتها إلى مزارات مقدّسة.

مِنَ الواضح أن ثمّة تكرارات لم أسهُ عنها، وهي قد لا تتفق مع معايير الكتابة النسقية التي لها سياقات واضحة، مِنْ بداية المكتوب حتى نهايته، لكن ولأنّ الشذرة تنتمي إلى نوع مختلف، ذات طابع تأملي بحت، لم أجد عيباً في إعادة قول ما قلته في مرات سابقة، وبطريقة تناسب اختلافي أنا، وتبدّلي أنا عن المرات السابقة، مرد ذلك، يعود ربما إلى إلحاح ذاكرة طافحة بأحداث جارحة ووقائع مؤلمة، جعلتني أتطهر منها عبر كتابة، تعبّر عن فرادة المرء في التفاعل مع ما لن يتفاعل معه شخص آخر.

التفاؤل والتشاؤم نزوع حيوي في الحضارة الغربية!!

ما هو سرّ التفوق الحضاري للغرب إزاء الحالة البائسة لأوضاعنا نحن عرب اليوم؟

سؤال تقليدي ملح... اهتم به، أو بالأحرى انشغل في الإجابة عنه العديد من الأكاديميين والمثقفين، وكل من ادّعى لنفسه تفكراً استراتيجياً بأسباب الإخفاقات النهضوية، ومسببات السبات الحضاري الطويل في عالمنا العربي، فمنهم من ردّ يقظة الغرب الحضارية إلى تخليهم عمّا نتشبث به نحن من أحكام نصوص مقدّسة، لا تلبي مستلزماتها واقعاً متغيراً على الدوام، ومنهم من عزا التطور الأوروبي إلى تجريبيتهم المعتمدة كمنهجٍ مثمر في التصنيف؛ لتمييز الضار من النافع. وفي هذا السياق لن ألجأ إلى التفسيرات التي استفاضت في تهميش عين الواقع، عندما تغنّت بعافيتنا الروحية مقابل تأزمهم الديني، وهذا، كيلا نرتكن على الأحكام الميتافيزيقية القائلة بلعنة قدرية انصبّت على هذه الأمّة، فضلّت، وبنعمة إلهية ألهمت تلك الأمة على ما فيه خيرها..!

وببساطة علينا النظر في أسباب تطور الغرب الحديث بالبداهة نفسها التي أنستنا علّة تخلفنا الناجم عن هذا السكون المدوّي، أو هذا الصمت المميت، في حياة لا تقوم إلّا على حركة التجاذب والصراع بين متناقضات، إنْ حصَلَ وتصالح فيها الضدّ مع الضدّ، وإنْ أتاح واقع ما توفير مساحة ممكنة للآراء المتنوعة والأفكار المتعددة أو المتناقضة، فاستحال بدوره هذا (الواقع) حلبة لهذه الدينامية الخلّاقة، حتماً سيزهر حضارة متقدمة ويثمر مجتمعات حيّة، مثل ما تغذّت به حضارة الغرب التي امتصت رحيق الحياة مِنْ جبلة التبشير بأنوار عصرٍ، ما كاد أنْ ينزلق بتفاؤله المبالغ فيه نحو هاوية الانغلاق الأيديولوجي، حتّى تمّت مواجهته بمطفأة التشاؤم المفرط لنيتشه وغيره، وهذا ما جعل مِن إدامة هذا التجاذب الحيوي الخلّاق بين الشدّ والرخي، والرفض والقبول، والهدم والبناء، والاشتعال والإطفاء، والتفاؤل والتشاؤم سبباً لما نفتقده نحن العرب في حضارتنا الراكدة اليوم.

كيف تحولت المرأة سوطاً لجلد ذاتها

القاعدة التي لا تحتاج إلى توكيد هي التي تصحّ فتنطبق على أنواع الكائنات الحيّة كافة، ولنأخذ الطيور على ما نسوقه ههنا مثلاً. فقد خُلِقَت، وإنْ شئت، خلقها الله بأجنحة لكي تطير وتحلّق عالياً في سماء رحبة، لكن، إنْ فقدت أجنحتها التي من أجلها كانت لتكون

طيوراً في الفضاء الشاسع، ستفقد جوهرها حالما يسجنها الناس في أقفاص حديدية طوال مدّة زمنية، أقصر بما لا يقاس مع انحباس المرأة في قفص تقاليد قيم وأعراف ذكورية، جعلتها تنسى حالها وتفقد كينونة وجودها الإنساني الحرّ في اختيار ما تريده... أو ما ترغب به...

وعليه، لا تتوقع من عصفور أفلته، بعد حبس خمس أو عشر سنوات داخل قفص محكم الإغلاق، غير العودة إلى حبس قفصه. فكيف لك بعد كل هذا! أن تطالب امرأة مسجونة في أقفاص تربية ذكورية، مئات لا بل آلاف السنين، بألّا تكون هي كذلك... سوطاً لجلد ذاتها.

استلهمت هذا الكلام، بعد أنْ سمعت حواراً ساخناً مع نسوة كن يبرّرن زواج الرجل بأربع نساء، بقناعة راسخة ويقين مدهش.

جرم التفكير بسرّ المقدّس

عليّ أن أتذكّر دوماً أنّ الحياة المُعاشة في مجتمع معين وفي مرحلة زمنية محدّدة، لها أصول وموجبات، تمَّ الاتفاق على أنها هي كذلك من ضرورات التلاحم الشعبي والوئام الاجتماعي و... و... بالإضافة إلى كل ما يخطر على بالك من عبارات التفخيم بحال جماعة مُنصاعة بهدى إيمانها الميتافيزيقي بما لا تعرف له سبباً، سوى أنها على ما هي عليه كانت... وستكون...

فقوّة المقدّسات تأتي من جهل الناس بالسبب الذي يتقدّس فيه هذا لا ذاك؛ وإنْ تورّط واحد منهم بالبحث عن السبب، سيجد نفسه معزولاً قبل أن يطيحه جرف هيجان الجماعة الهادر بصوت واحد وعقل موحّد. لذا، إنْ كنت ممن عصيَ على الذوبان بما يؤمنون، عليك أنْ تأمن شرهم بالالتفاف على ما قد يؤذيك نطقه، من دون أن تتخلى عن قوله بالغمز واللمز، أو بالوشاية إلى ما قد يُفهم منه المقصد المضمر في طيات الكلام.

هوذا حال مدرسة التأويل التي أتحفتنا بروائع لا تضاهي دروس «كليلة ودمنة»، عندما قوّلت الحيوانات، ما على الناس قوله، وبمتعة الاستدلال السيميائي نفسه في أفلام المخرج الإيراني «عباس كيورستامي» الذي كشف بأفلامه عن مشاهد ثورية صامتة، لكي لا يراها رقيب ساذج: فأبطاله لم يتفوهوا بالدعوة إلى تحول سياسي واجتماعي ممنوع في نظام شمولي؛ بل كان لصمت أشخاصه حيال بؤس أحوالهم الاجتماعية والسياسية، وتصويره قلة حيلتهم حيال التسلط عليهم، بمثابة دعوة إلى الثورة على إمبريالية الاستبداد الإلهي لأباطرة الثورة الإيرانية ومرشديها.

سيبقى أفلاطون فيلسوفاً مثالياً ليس في القضايا الميتافيزيقية فحسب، فجمهوريته التي اشترط لقيامها رئيساً من الفلاسفة والمفكرين، ستبقى حلماً مثالياً طالما أنك تعيش في واقع معقد، لن تتصالح فيه أبداً معتقدات العامة مع وعي النُّخَب، رغم أن الضرورة

تقضي الحفاظ على مساحة شاغرة دوماً، لمن يريد تنبيه الجماعة دوماً..

إنكم لستم على ما تظنون، ولا الصواب في ما تعتقدون.

لهذا السبب بقيت السياسة لثعالب القوم.

يمين متعقل... أو يسار متهور...!!!

يعبّر اليمين السياسي في جنوحه الدائم إلى المحافظة على شيء من تقاليد العهود القديمة، عن تعقّل ورصانة كبار السنّ وتأملهم في ما قد ينجم عن كل انقلاب أو خطوة غير محسوبة؛ وعليه، قد يعكس اليسار السياسي في اندفاعه الدائم إلى التغيير الراديكالي ذهنية المراهقين المتهورين في الإطاحة بما لا يتماشى، أو بالأحرى، بما لا يتطابق مع أحلام رؤوسهم الصادقة في براءتها، ولأنهم كذلك... يجرّهم إيمانهم واعتقادهم بعالم خالٍ من الأزمات والفساد إلى الاصطدام بواقع عصي على التجسُّد في أرض موحلة بعكر التضاد والتناقضات.

وهنا، لا أدعو إلى التحزّب مع اليمين ضدّ اليسار، أو بالعكس، حتى وإنْ كنت تواقاً بأن يتطعّم التعقّل اليميني بشيء من مجازفة اليسار، لكي نتحول عن سباتنا الحضاري الراكد، منذ أمد طويل.

لكن، ومع ذلك... في غير السياسة، لست إلّا يسارياً...

يوميات «بودلير» زفير غضب

وأنت تقرأ يوميات «شارل بودلير»، تشعر باشمئزازه من السذّج والبسطاء الكثيرين ممن ليس باستطاعته تقويم الحسن والقبيح ولا تمييز الضار من النافع إلا بمنظار ذاته، فيرى ظاهر الحال لا باطنها، ويستلب انبهاراً بالألوان المزركشة، بدلاً من النبش فيما تخفيه تحتها من أشياء، منها تُزبد الألوان ويتبهرج الشكل.

وبالعودة إلى موضوعنا، لو لم يُفرِّغْ ويفجر «بودلير» جام غضبه على من لم يعطه حقّه، إنصافاً لقيمته الإبداعية، لكان إمّا انتحرَ، وإما أُصيب بالجنون؛ وعليه، لكانت يومياته عبارة عن تفريغات ضرورية عما احتُقِنَ به، أو بالأحرى بمثابة تطهير يومي لغصّة العيش بأحزانه مع من يفرحون بغبائهم.

الجنس تدنيس رومانسي!!

أسمى ما في رومانسية العاشقين هو الحب الطاهر من... ولأنّه كذلك، نتذوقه بلذّة تدنيسه من خلال ممارسته عبر الأعضاء التي منها يخرج البول.

ولا تعجب إنْ تساءل المرء هنا عن السرّ؛ لربما كانت الممارسة الجنسية عند أي عاشقين، توفّر لذّة، تفوق لذّة إشباعات شبقهما

الجسدي. ولعل جذوة اشتعالهما الرومانسي هي السبيل الأمثل للتمتع بإطفائها عبر «تابو» هو أكبر مِنْ أنْ يتعرى منه المرء، أو يتحرّر منه في لحظة... أمام أي شخص كان...

ذلك أنّ ممارسة الحب عند العاشقين هو أكثر من وصال جسدي، إنّه ملامسة الموجود في رأس الأنا عن الآخر، بالولوج إلى ما في عمق محرماته، وبما لا يضاهيه إلّا شعور متبادل مع الآخر، قبل أن يُصابا بفتور العادة، لدى من تحابّا بشغف الرغبة، كي ينفضح سر أمريهما.

مشقة الحياة

إنّ خيبة الشباب من جرّاء المصاعب غير المحسوبة في مستقبلهم هي الصدمة الأولى والأهم التي قد تعيد إليهم رشدهم، كأبناء يسعون هنا على الأرض في واقع مليء بالتحديات، بعد أنْ حلّقوا كالفراشات وهاموا بعيداً على أجنحة أحلامهم بمستقبل سعيد وواعد.

بكلام مختصر، إن الآتي من الأيام، ليس مزهراً بورود تفاؤلنا، ما لم نشمّر عن سواعدنا، لإزالة الشوك من درب سيرنا إلى الأمام، أو صعودنا إلى الأعالي...

«ألبير كامو» يحزن... لأفراحهم...

الامتلاء هو الغاية من سعينا الدؤوب لامتلاك الأشياء واقتنائها، وذلك كي نرتاح من الغمّ الناجم عن إدراكنا لحقيقة نقصاننا في حياتنا المنقضية حتماً... بعد حين..

إذ إن المصيبة الأعظم تنبع من يقين واحد ووحيد، وهو أننا ميتون لا محالة...، وأنّ معرفتنا لا تعدو عن كونها سراباً بالقياس إلى ما نجهله عن هذا الكون المطلق والسرمدي. هذا هو المُصاب الوجودي لـ«كامو» الذي أراد أن يستقبل الموت السعيد بفرح مريب، بعد أن تعرّت أمامه كل الحكايات الكبرى عن السعادة الكامنة في الزواج والإنجاب أو الغنى الخ... ليبقى وحده واقفاً، وجهاً لوجه أمام أوهام الحقيقة تلك التي أسعدت الآخرين... فأحزنته.

خَطْبُ النساء من خضوعهن

كل النساء يحملن بذور خطب نفسي، بسبب خضوعهن إلى ضغوطات سلطة ذكورية، لا تعترف بهنَّ، كائنات إنسانية حرّة في ما تريد...، أو في ما ترغب...؛ وإن أردت أن تقذف أحداً بشتيمة لاذعة، ما عليك إلا أن تسبّه على النحو الذي يحيلك فاعلاً بأخته... بأمّه أو ابنته؛ وقس على ذلك الكثير من الأمثلة التي لا وجود فيها للمرأة في

العالم المتأخر، إلّا بالنسبة إلى رجل، قيمته كرجل ليست إلّا في الذود عن شرفه المتمثل بالدفاع عن أخته أو أمه.

فالأنثى في مثل هذه الأحوال تتعرض إلى تدمير بنيوي يتقوّض المسوغات الإنسانية لأحاسيسها المرذولة، إنْ تجرأت على الإفصاح عما تشعر به حياله؛ فالمطلوب ألّا يتقدمن وألّا يشهرن ما في أنفسهن، لئلا يتهمن بالفاسقات والفاجرات الخ...

لذا، فالنسوة في المجتمعات الذكورية ليس لديهن متنفس في عالم الوعي، فيلجأن بشكل تلقائي إلى اللاوعي فيستحلن غير سويات، بمعايير التصنيفات، أو بالأحرى، التصورات التقليدية، كتلك التي لا يخطر فيها على بال رجل تقليدي أن يتخيل أمّه وهي تمارس الجنس بشبق فحولي...

جنون نيتشه ضجيج أسئلة

لئلا ننسى، علينا التذكير مرةً ثالثة ورابعة وخامسة، بأنّ «نيتشه» لم يُعفِ نفسه من نقد لسانه اللاذع؛ فبهذا المعنى، لا تستطيع أن تخاله على شاكلة الناس البسطاء والعاديين.

فملامحه النارية تضج بالسخط على كل الأشياء، وإيماءاته الثائرة، مليئة بالنقمة على كل ثبات، فهو يروم في اهتياجه إلى بعثرة كل ترتيباتنا، كما إلى تدمير الهندام الاجتماعي لأوضاعنا القائمة على

أوهام، خَلَقْنا لها إلهاً، لتدبير بقية حياتنا القصيرة عبر حكاية مضحكة أبداً.

هوذا «نيتشه»، رجل أضناه التعب من فرط التفكير والتفكُّر، حتى أنّك لا تخاله إلّا عقلاً استحال شكلاً فيزيولوجياً لإنسان أصابه الخبل مِنْ جراء عدم الملاءمة بين جوهر العقل وطبيعة البدن.

وأغلب الظن أن «نيتشه» وُلِدَ من رحم امرأة عانت «الأمرّين» مِنْ مخاض ولادة كائن عدمي، كان منذ لحظته الأولى، طفلاً فوضوياً لا يستكين إلى إشباعات الرضاعة إياها التي تغذي بدن أطفال ليسوا مثله، ولا يشبهون عقله الملتهب بالأسئلة عما نحن فاعلون...

التقدّم والتخلّف في ميزان العقل النيتشوي

ينفر «نيتشه» من ذوق العامة المنفعلة فرحاً بما لا يفرحه، والتي تحزن على ما لا يحزنه في أحاسيسه الموغلة إلى أعماق مسطحاتنا الفكرية. بهذا المعنى، إن «نيتشه» عصي على كل تفسير ينحو به ناحية البشر العاديين، فلا يصح قياس عقله على ما في رؤوس الناس. كما لا ينفع التمثّل بما يشعر به مقاربة مع مشاعر السواد الأعظم من الجماهير، فلا الموسيقى التي أعجبتهم تعجبه، ولا ما يعتبرونه فكراً هو تفكّر في قاموس عقله الذي ذهب إلى الحدّ الذي انتفض فيه على كل القيم والمفاهيم التي ما زلنا نعتبرها إنجازاً سياسياً مهماً، عقب الثورة الفرنسية.

فالمساواة والعدالة الاجتماعية كما المواطنة، لا تشكّل بنظره تقدماً، وإنما تراجع عن الذوق الأرستقراطي الرفيع للحضارة اليونانية وانحطاط عنها، لأنّ الخاصّة لا تتساوى مع العامة، ولا ذوق المبدعين يتوازى مع ما تستأنس به العامة. أمّا الظلم فهو في ما كرّسته الثورة الفرنسية عندما جعلتنا متساوين بما لا تتساوى به المخلوقات التي تستمدّ كينونتها من اختلافها وتنوعها وتعدديتها، ليس إلّا...

إنه «نيتشه» إن كنتم تجهلون، فيلسوف «العود الأبدي»، فالأشياء تتكرر على المنوال نفسه دوماً، إلّا أنْ قوّة ذلك ليست مِنْ مبدأ التكرار في ذاته، وإنما من جهلنا نحن البشر بعودة الأشياء على ما كانته هي نفسها منذ زمن، كما أن تأثيرها المضاعف يتأتى من عدم درايتنا بالذي كان... وما سيكون...

انتفض «نيتشه» على فلسفة سقراط الداعية للفضيلة، لكونها مهّدت الطريق أمام الفلاسفة السائرين على ما شقته أوهام الأخلاق السقراطية...

غير أنه كان شديد الإعجاب بالذوق الأرستقراطي لسياسة أثينا عند الإغريق، لأنها رامت إلى إنصاف المميزين، كأسياد في جمهورية أفلاطون الذهنية، ومواطنين أحرار، لهم وحدهم حق انتخاب الطبقة الحاكمة في الواقع اليوناني القديم.

كيف أن الكتابة لا تُعلّم

القراءة أخت الكتابة بالطبع، فلا يجوز فصل الواحدة عن الأخرى، غير أننا لا نستطيع أن نقرن ضرورة القراءة بحتمية الكتابة، لأسباب تتعلّق بما هو «فوق مكتسب».

ذلك أنّ ثمّة أشخاصاً تميزوا بالقدرة على امتصاص المقروء أمامهم، نصاً كان أو لوحةً، وإن شئت شخصاً، بحدس فيه من القوّة بحيث لا يمكن قياسه أبداً مع تحصيلات المعرفة المكتسبة، أياً كان نوعها وكمّها.

وعليه، وُهب البعض فطرة الغوص في باطن الشيء، بما جعل من بصيرتهم، ثاقبة في استخلاص دفائن عصيّة على منَ لم «يُنعمه» الله بخصال لا يمكن أن تكتسب بالاجتهاد، حتّى إذا ما تأكدت فرضية اكتمال الشعور وكفايته منذ ولادة الطفل، نميل إلى القول إنّ الكتّاب المبدعين هم مَنْ انفعل بقراءة المكتوب على نحو فريد ومميّز عما يقرأه الآخرون من المكتوب نفسه، فثمة إحساس فطري لدى منْ يمتلك قابلية استثنائية على أن يجترح إبداعات أكيدة في حال تبصّر بالصبر والاجتهاد.

الكاتب إذاً، هو من وُهب قدرة على معرفة نفسه الناقمة على بؤس حاله وأحوال الآخرين.

بين الرغبة والحاجة...

الإنسان كائن اجتماعي متردد ومُربك بين رغبته الدائمة للتآلف مع أنس البشر... وحاجته المستمرة للعودة إلى نفسه والانفراد بعيداً عن همومهم؛ وبين الرغبة... والحاجة، تقبع إرادة حائرة بين ما نريده...، وما لا إرادة لنا فيه...!!

تملّصات ذكية

استَلْهَمَت الحضارة الغربية المعاصرة مِنْ تجاربها الدينية درساً مفاده: أنّ وجه المسيحية المتمثّل بتزمّت رجال الاكليروس وتسلطهم خلال هيمنتهم في القرون الوسطى، كان ينتمي إلى يوتوبيا نقيضة لطوباوية الوجه الآخر للمسيح الذي يمثل المحبّة والرحمة والزهد وازدراء كل ما في الدنيا من ماديات زائلة. لقد أجرت الحضارة الغربية تسوية تاريخية، أجلّت فيها البتّ بالوجهين، ريثما تنتهي من مشكلات شؤونها الوضعية التي تتسم بالديمومة والاضطراد، فما أن تُحلّ معضلة حتى تفرّخ أخرى. هكذا، لم تعادِ الحضارة الغربية الدين، إنما أرجأت الموقف منه بالتملص وعبر الانهماك بما لا وقت بعده للتفرّغ والنظر في غير همومها المادية.

بيروت إصرار مدينة

من مكاني هنا، استحالت بيروت... رغم أنها تحت، وأنا أنظر إليها من فوق... قمّة جبل عال، ما زالت شامخة فوق قدرتي على إخضاعها واستنفادها... مدينة استحوذت عليّ تناقضاتها المتآلفة على نحو يدعو إلى التعجب من هذا التعايش بين الأديان، بما أثار استغرابي من سرّ جاذبيتها، لتآخي سلوكيات متناقضة وأخلاقيات متعارضة؛ كيف لبنات الهوى أن يمارسن البغاء في مساكن مدينة أعطت للمتدينين حيزاً لا بأس به، لكي يمارسوا صلاتهم جنباً إلى جنب بسلام ووئام.

سحر بيروت لكونها مدينة عريقة، في لمّ شمل تناقضات، لن تألفها، إلّا بعد أن تخوض التجربة بحلوها... ومرّها...

في «أمستردام»، البغاء مهنة، لها نقابة تحمي حق العاهرة... في أن تترشّح إلى مقعد برلماني. مثلما عليها أن تدافع عن حق العاهرة في أن تتبارك عبر الصلاة في كنيسة مجاورة، كي تحمي نفسها من أيـ... السوء.

نخبوية «محمود درويش» وشعبيته

البارحة مات «محمود درويش» شاعر الجماهير الغفيرة، بعد أنْ نظم في مراحله الأولى، قصائد ثورية عاطفية، ذاع صيتها بقوّة محاكاتها

لمشاعر الناس وحماستهم، فأنشدوها في الساحات العامة، وغنوها في المناسبات السياسية، حتى كادت أنْ تتحول من فرط انتشارها إلى أهازيج فولكلورية، للقاصي والداني. رحل درويش، بعد أن فرّغ نصف عمره، ليمنع اختزاله إلى ناظم لأغانٍ شعبية وتراتيل دينية، ومن أجل ذلك خصص جلّ وقته لكي يستعيد نفسه منهم، ويصوب المغالطة المتشبثة بذوق العامة وعقلها، وأظنه كاد أنْ يقولها بالفم الملآن. «إسمعوني! أنا لست بكاتب لقصيدة أمي ـ ريتا ـ سجل أنا عربي» فأنا الآن كائن آخر فالتجربة استنفدت حماسي وأعادت إلي عقلاً هادئاً ومشذباً من أحلام الشباب وتهورات الفتية، فالوطن غالٍ، والأرض غالية، ومن أجل الغالي يمكن أن نفتدي بحياتنا الأغلى، قبل أن يستدرك لا ليتراجع وإنما ليصوّب غاية المتقاتلين أينما كانوا وحيثما حلوا، ليقول: إنّ ثمة على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

سرّ تراكم الثروة

تُحاك حول الأثرياء الجُدُد، قصص وحكايا حول مصدر ثرائهم، فيستثيرون شهية الألسن للاجتهاد والتكهّن حول مغزى تحوّلهم من الطبقة الفقيرة إلى الطبقة الغنية، خلال فترة وجيزة، اختزلت سرّ استئثارهم بمبالغ مالية ضخمة، لن تؤتى من جهد طبيعي، ولا من قنوات عمل عادي، كسائر الناس. ثمّة في الأمر سرّ إذاً، ليس على ما

تشطح إليه مخيلة البسطاء، ولا هو بمعجزة «إفتح يا سمسم لـ مغارة علي بابا والأربعين حرامي». فالثري، أو بالأحرى، جل الأثرياء يتسمون بالكتمان الشديد، حرصاً منهم على ألّا يبوحوا بالسرّ ليحتكروا السبب، سبب استحصالهم عل ما يحسدهم عليه الآخرون.

فالأحاديث والحكايا التي تنتشر حول ثروة الغني هي بمثابة الغبار الذي يحتاجه مثل هؤلاء للتمويه، ليستمر هو بجمع المال... وهم بسرد الحكايا عن سرّ تراكم ثروته...!!

«دوستويفسكي» فيلسوف علم النفس الأول

لو قُيض لـ «دوستويفسكي» في ألّا يرتكب «راسالنيكوف» بطل روايته الشهيرة (الجريمة والعقاب) جريمته الشنعاء بالساطور، لكان بالتأكيد غير قادر على أن يستنبش العلائق الرهيبة الكامنة في أروقة النفس الإنسانية التي تتصارع مع نفسها، وتتناقض مع ذاتها على نحو تدفقي، لا يحدّه زمن قاطع ولا لحظة حاسمة. وذلك لأنّ جبلة البشر، لا تَرْتَكن إلى صفة مانعة وجامعة ما دامت تحيا على ما يغتلي في الذات من تناقضات فاعلة ومنفعلة بأسباب ومسببات، لا يمكن إحصاؤها في رقم، أو تعينها في وصف.

«دوستويفسكي» أجاد التقاط الأثر السرمدي لاعتلال النفس، إنه شيء أزلي يتجاوز الأمكنة والأزمنة ذاك الذي ينجم عن رغبة، أو نزوة

سلوك متهور، يصوّره لنا شخص قرّر بأن يعاقب أناه على ما ارتكبته في لحظة، لكي يحرّر لحظاته المتبقية ويخلّصها من همّ تبكيت الضمير. الخوف ـ الرعب ـ الشفقة والقرف. وهذه واحدة من قضبان سجن الذات الأبشع والأقسى من زنازين العالم كلّه.

الإنجاب خلق إلهي عبر المرأة!

غيرية الأم وتضحيتها، أثناء رعايتها لأبنائها، تبقى هي إزاء استحصالها على لذّة عطاء لا يُضاهى.

ولإيضاح الصورة أكثر، قسْ ذلك على ما يغتبط به الناس والرجال بالتحديد، عندما يتمّمون أو ينجزون أو ينتهون أو يصلون إلى هدف يتوقون إليه، ففرحتهم بهذا أخس من أن تتوازى مع فرحة إنجاب الأم. فصناعة الأولاد مُعجزة بالنسبة إليّ، لا يقدر عليها إلا اثنان الله والمرأة...!!!

«نيتشه» مستشرفاً تبدّد الآمال

السؤال عن سبب اهتمام الناس اللافت اليوم بفيلسوف العدمية والعود الأبدي، «نيتشه»، لا يعود إلى كونه دعا لاجتثاث خسّة البشر ودونيتهم، تمهيداً لولادة إنسانه الأعلى المتصف بالكِبر والجرأة

والعنفوان، ولا يمكن أنْ نعزو إقبال شباب هذا العصر على التهام شذراته التدميرية باعتبارها تحاكي حماسهم المفرط إلى التمرّد على السائد والثورة على الواقع، فحسب، بل لتبشيره بما آل إليه وضع الإنسان المعاصر، مِنْ إخفاق وغرق وإحباط.

لقد استشرف نيتشه الآتي بحذاقة نبي، نهى القطعان عَنْ السير إلى الهاوية عبر صرخة، لم تصل إلى مسامع معاصريه الممتلئين ضجيجاً بيوتوبيات جُرِّبت. فاسْتُنْفِدَت بعدها الآمال كلها بوعود الأحلام الجميلة.

حذّر نيتشه إنسان المستقبل من بؤس الحضارة الآتية، لأنها لن توفّر له الأمان والاطمئنان، بل ستمدّه بكل أسباب الإخفاق في مستقبل بائس ومقلق، كنتيجة لتبدّد الأمل.

الإبداع وبراعة الاستغلال

وأنت تقرأ أعمالاً روائية لرجال كبار ومبدعين، قد يخطر على بالك رُزمة من الاستفسارات والأسئلة، عن علّة ذهاب الراوي بهذا المنحى لا ذاك، عن سبب استرساله بهذه النقطة لا تلك، وأيضاً عن الغاية من توغّله بتفصيل لم يسترعِ انتباهك مطلقاً، فكتبه لتقرأ فيه أنت حالك، فيما لو تعرّضت للموقف نفسه...! عندها تستنتج، أنَّ الكاتب البارع، لا يبني حبكة روايته من نسيج خياله، إنما يستند إلى

وقائع حياته المحصلة على نحو ناقص أو مجتزأ، فيذهب بها إلى حيث فبركات مخيلته وإتماماتها لنواقص أحداث، حصلت ذات يوم. فـ«دوستويفسكي، وماركيز، ونوبوكوف» على سبيل المثال لا الحصر، لم يبدعوا من لا شيء، ذلك أنّ صدق ما قالوه يأتي في سياق هلوسات أشخاص يتمتعون بخيال خصب، فمثل هؤلاء يتسمون حتماً بطفولة صاخبة، وبهذيان رجال أرادوا أن يكملوا على الورق، ما لم يستكملوه على أرض الواقع!

فرادة الإبداع... من أين؟

عبقرية المبدعين الكبار تكمن بفرادة ما يستشعرونه في حياتهم الطافحة بأحداث ووقائع، وصور وروائع؛ يختزلون عوالمها في كلمات أو جمل، تشتمّ منها وأنت تقرأ أعمال «دوستويفسكي» مثلاً، التاريخ السوريالي للفن الروسي...، وتلتمس سحر البؤس اللاتيني للكاريبيين في روايات «ماركيز»، لتهتدي إلى الأثر النيتشوي المطعّم بأبيقورية الإغريق وأنت تطالع «زوربا» لـ «كازانتاكيس». كما يمكنك أن تلتقط علّة النكتة المصرية على واقع الحال، إنْ تمعنت جيداً بمنتوج الفقر المدقع لأحياء مصر القديمة، كما صوّرها «نجيب محفوظ».

لا أعرف لماذا خطر على بالي في هذه اللحظة اليمن السعيد، حيث لا أزال أنتظر وأتوقع مبدعاً منها، يتحفنا بما تفعله عشبة «القات» عند مضغها، في نفوسهم، غير كسل الاجترار...

منظور الهزل والمأساة

الكتابة كانت دوماً بالنسبة إليّ بمثابة متنفّس، لكي أتطهر من علّة اختناقي بخديعة تظهير البلهاء كمفكرين.

فبسبب قرفي من سخافة المظاهر الغشاشة كلّها، كنت أكتب نقداً، في ما لا يستأهل غير الذمّ.

أمّا الآن، وقد خفتت طاقتي «الثورجية» حتّى حدود الملل من كل التصويبات السياسية والتصحيحات العقائدية، فتبدّل معيار تصنيفي الخطأ من الصحّ، والسيئ من الجيد إلى ما تتوخاه راحة الذات التي فقدت لذة المفاجأة، بعد أن استنفدتها التجربة، تجربة الحماس والاندفاع الشبابي، لتتحوّل إلى الاستئناس بما يبعث على البهجة في نفسي المهمومة بالأرق، عبر تصنيف الأشياء بين مهضومة وسمجة، هزلية ومأسوية... الخ.

فضول مفرط

لم يكن بحوزتي ما يكفي لشراء لائحة طويلة من الكتب الجديدة في المعرض الدولي للكتاب، فلجأت إلى حيلة الاستعاضة عن بعضها، عبر قرار تعسفي، صنّفت فيه الكتب... من دون إسناد منطقي وجيه، من المهمّ إلى الأهم. إلى أنْ وجدتُ نفسي مدفوعاً، من دون

احتساب المبلغ، إلى دفع ثمن أربعة كتب غالية تتكلم عن «النَوَر أو الغجر»، وعن الشعراء والمفكرين الذين أقدموا على الانتحار.

لهفتي لاستنباش المطمور والمقصي خلف المشاهد الظاهرة كما لو أنّها كذلك قدر ميتافيزيقي وسرمدي، يوازي فضولي للوقوف على السرّ...، سرّ حفاظ الغجر على كينونة حياة، ليس فيها من إغراء «بوهيمي» كافٍ للخضوع إلى ما يخضعون له من هتك وتعذيب... وأيضاً سرّ فقدان بعض الشعراء والمبدعين القدرة على مجاراة حياتنا، فينتحرون!

ثمّة سرّ آخر لم أجدْ له كتاباً محدداً؛ كيف للمرأة أنْ ترضخ فتنصاع لغباء زوج سادي؟ وكيف لها أن تتكيف مع متطلبات الطاعة «المازوشية» لمشيئة رجل حمار.

نهار جديد

أخاف من أنْ أكون قد أصبحت مدمناً على «الأدرنالين»، بعد أن صارت «نهاراتي» تُدشّن كل يوم باستفزاز يوتّرني، فيرتفع معه منسوب هذا السمّ في دمي.

لعلّي أصبحت كائناً مريضاً بالخوف، أو بالأحرى، كائناً لم يعد يستشعر وجوده، إلّا بالقهر والغضب... بالنقمة والحسرة... بالغيظ والقرف... تأكد لي هذا البارحة، وأنا أقود سيارتي بهدوء أعصاب

سائق عادي، لربما مللت بعدها...، فقرّرت حينها من دون وجه حق، أنّ السائق المتّجه صوبي، سيصدمني...، أخافني الاحتمال عندها شتمته بغضب، وبدأت نهاراً جديداً!!!

سعادة مُرجأة

غالباً ما تقدم الكتب الجيدة عناوين سيئة، أما العناوين الجيدة، فهي كذلك، لأنها تروّج لوعود عقل يحتاج إلى العيش في قعر الأكذوبة.

ما يهمّ القراء البسطاء عموماً، تعزيز قناعتهم بمرتجى آمالٍ، لا يهمّهم زيفها، ما دامت توفّر لهم دفء الاكتمال أو الامتلاء بسعادة مُرجأة إلى حين... والحين هذا آتٍ بالتأكيد في زمنٍ يتدفق تأجيلاً عقب تأجيل!!

ريبة «كافكاويه»

قصص فرانتز كافكا ورواياته طافحة بأحاسيس إنسان غريب الأطوار من فرط استشعاره الخبايا الكامنة خلف أقنعة الذات.

إذْ كشف لنا عن تعاسة الوجوه الضاحكة؛ وحذّرنا من غش الوجوه الأليفة، ودعانا إلى الارتياب من نعومة المرأة ولطافتها، ذلك أنّ ملمس الزجاج وانسيابية وجهه البرّاق سيستحيل آلات قتل حادة، هذا إنْ حاولت سبر غوره ـ غورها بأي شكل مِنَ الأشكال.

السلطة غاية بالتأكيد

فكرة «نيتشه» القائلة: «بأنّ كل جسد يسعى إلى أن يصبح سيداً على كل المساحات رغبةً منه في الاستئثار بالسلطة؛ فيتصدى إلى كل من يحول دون توسعها...، لكنّه يواجِه دوماً جهوداً مماثلة من أجساد أخرى، إلى أن ينتهي به الأمر للتوصُّل إلى تدبر اتحاد مع الأجساد المرتبطة به بدرجة كافية، وهكذا تنعقد الصلة بين هؤلاء، فتتآمر معاً لامتلاك السلطة... وتتواصل هذه العملية».

إن هذا التفسير يتجاوز المسطح الأخلاقي للبشر، في تعريته الأسباب الكامنة خلف المزاعم السياسية والأيديولوجية كافة. وببساطة توغل «نيتشه» إلى ما قبل القيم المكدّسة بعضها فوق بعض، لتشكّل عبر تاريخ هائل من الفبركات الدينية والاجتماعية، ستاراً سميكاً حَجَب حقيقة وجودنا المتمثل بأننا كائنات نحيا من أجل السلطة. وهذا يعني، بأنّ لذّة السلطة تُشكِّل هدفاً لكلا الطرفين، للظالم والمظلوم، للمتسلّط والمتسامح، للذكي والغبي، للقاصي والداني، وعليه، يجب أن تُلغى من قاموس الشتائم السياسية والاتهامات بأنّ فلاناً يرغب، مواربةً في ما يطرحه، للوصول إلى سدّة السلطة، بينما الآخر المعارض، يتفانى زهداً بالسلطة وأصحابها.

لكن، ولئلا يُستعمل تبرير رغبة الجميع بالسلطة، من أجل تمييع المسألة والكفر بنتائج وصول الحمقى اليها، يبقى أن نشير إلى أنّ وجه

استعمالها هو الذي يميز رجال السياسة الحقيقيين عن منتحلي هذه الصفة.

بين عبث «عمر الخيّام» وسخط «نيتشه»

بين عبث ومجون ولهو «عمر الخيام» وتشاؤم وغضب وسخط «نيتشه» مسافة تتجاوز العمر الزمني لمرحلتيهما؛ فوجه الطباق بين الفيلسوفين، لا يُباعد أبداً بين دعوة الخيّام هذه «هي النفس عارية تسترد، فعشْ معها عيش العارية» من جهة؛ وقول نيتشه ببراءة الأصل من كل صيرورات حياتنا المتغيرة أبداً.

يحلّق الاثنان عالياً في فضاءات واحدة، مغايرة بالتأكيد عمّا في عالمنا من أحكام قيمية سخيفة، لا تؤتي إلّا بالعيب والحلال والحرام. الفارق الزمني بين المبدعين، يؤكّد براءة أصل العظماء من كل الزيادات العصرية، والإضافات التي لنْ تجعل من الغبي مبدعاً، حتى وإنْ توافرت له كل تكنولوجيا القرن الثامن والعشرين.

«فقاعة» الأزمة الاقتصادية

لفتني قول أحد مديري مؤسسة للأبحاث الاقتصادية، ممن لم أسمع باسمه من قبل قطّ «يارديني» معلقاً على الأزمة الاقتصادية التي

داهمت في الآونة الأخيرة، عقر دار الرأسمالية المتمركزة في المجتمع الغربي، بقوّة تكاد أنْ تطيح النظام الرأسمالي الليبرالي من أساسه، عندما قال: «بعد أن انفجرت إحدى الفقاعات، الطريقة الوحيدة للخروج من الركود الراهن وتجنّب الإحباط الاقتصادي، تكمن في ابتكار فقّاعة أخرى».

بعد ذلك، أي بعد أنْ خلصت مِنْ قراءة هذا التعليق وجدت نفسي أضحك وحدي، وهذا ما أثار حفيظة المحيطين بي، ممن كان يراقب صمتي وأنا أقرأ مقتطفاً ساخراً، لفتني هزؤه، ليس على ما ألمَّ بالاقتصاد العالمي من اعتلال مُفاجىء فحسب، بل على ما تضمنه هذا الوصف الدقيق والمبسّط حيال قضية معقّدة وهلامية.

ذلك أن الاقتصاد، آل إلى أنْ يتحوّل مِنْ مقايضة السلع بعملة نقدية كانت تستمد قيمتها في السابق من قيمة البضاعة المتبادلة، وندرتها وحاجتها الخ...، إلى الإتجار بالعملة النقدية نفسها.

هوذا الخطأ الرئيسي الذي من أجل حلّه استُولدت أخطاء جديدة اصطفّت على شكل دائرة من الفقاقيع التي صار من شأن معالجة إحداها الإطاحة بكامل الدورة الاقتصادية للنظام الرأسمالي الحالي.

وبكلام آخر، إن فائض الإنتاج راكم ثروة ضخمة، أوكل للقطاع المصرفي إعادة توزيعها، بما أدى إلى عواقب، تفرض علينا إعادة النظر بوظيفته؛ فليس هو من يجب أن يحدد دور القطاعات المنتجة، إنما هي من لها الحق في أن تحدد مهمة الآخرين ودورهم ونطاق تأثيرهم.

أعتذر من «ماركس» هنا، نسيت للحظة بأن الكلام الأخلاقي والوعظ الإرادوي لا يصحّ على الاقتصاد أبداً. فهو يسْتلب الإنسان الى ما يحيله ناطقاً باسم سلطة المال. ليس إلّا، تماماً كما استُلِبتِ القطاعات المنتجة الى الرأسمال الريعي الآخذ في التوحش.

خجل الرجل أقوى

يحار «نيتشه» كيف للمرأة أن تتبختر بحبلها أمام الملأ، بغنج ودلال وثقة، ومن دون أن يرفّ لها جفن في إشهار نكاحها، ومِنْ غير أن تستحي، كما لو أنها امتلأت بالشيء الذي استحوذت به على رجل يخجل من إشهار عريه على الملأ. سرّ المرأة إذاً، في مباغتتها له، ومفاجأتها الجميع باقتحام ما يخاف الرجل من البوح به، ليس في الجنس فحسب، وإنما في كل ما يتوجّس الرجل من خباياه.

ماذا يعني أنْ تعيش... أولاً؟!

لا تعلّق آمالاً كبيرة على وعد بانفراج قريب، ولا تتحسّر على خسارة منصب رفيع، ولا تؤجل فرحة اليوم إلى الغد، ولا تنغّص حياتك بالحزن الطويل على ما ستَعْتَاد على فقدانه؛ لا تمنِّ النفس بالفوز على ما تسعى للوصول إليه، ولا تَعِشْ حنين ذكريات أحداث انقضت، ولن تعود.

إتْرُك نفسك على سجيتها تفعل ما تشاء، وتتحرّر مِنْ قيود الواجب والمفروض وو... وذلك لكي تتلهى عَنْ الحقيقة المرّة، وترتحل على أجنحة النسيان، إلى حيث لا همّ للخواء والعدم، ولا انهمام بمعنى براءة الصيرورة والعود الأبدي.

فإذا ما تأمّلت جيداً بالعبرة من وجودك، قد لا تأسف على ما لم تحقّقه، كما لنْ تغتبط بما أنجزته، فالأمر سيان...، ما دمت ستؤول برمتك إلى ما آل إليه السابقون.

ثمة شيء وحيد يستأهل أن تفعله، هو أن تستعجل الزمن الآتي أي ما ستدركه الأجيال اللاحقة، بالإفصاح عمّا لم يفكر به الآخرون. وهذا يتطلب جرأة في الإقدام على ما يتوجس منه الكثيرون، نقول عنه إبداعاً، سيخفت بريقه حتماً، بعد أنْ يستحيل جزءاً من رتابة التفكير اليومي، بانتظار مبدع آخر، يتجرأ على البوح بـ... وهكذا دواليك. وهذا أقصى ما يمكن للمرء أن يفعله في حياة زاخرة بالنشاط والحيوية والتفكير. السؤال: ماذا بعد...؟ وماذا يعني...؟!!

رغبات الجنس جوع عاطفي

القاعدة السيكولوجية التي بموجبها تمّ تشخيص العلّة المرضية حتى يُصار إلى علاجها، فاتها أنْ تلحظ بأنّ لكل حالة فرادة، لا تُساعد أبداً في استقراء أوجاع هذا المختلفة عن أوجاع ذاك، عِقَدُ هذا غير

متطابقة مطلقاً مع العقد النفسية لذاك؛ ذلك أنّ الاختلاف لا يتعلّق بمنسوب المرض ودرجته، فحسب، بل بفرادة استعداد شخص ما للاستجابة إلى ما لا يستجيب له شخص آخر.

نظرية «فرويد» التي ربطت تصرفات الناس ونوعها بمستوى إشباعاتهم الجنسية، بالغت إلى حدّ إهمالها لما هو أخطر بكثير؛ إذ كيف بالذي يجنح إلى التهام الجنس نتيجة جوع عاطفي عتيق.

كثيرون ممن أصادفهم اليوم، رغبتهم بالجنس ليست إلا لتعويض حاجتهم للامتلاء العاطفي. «فرويد» إذاً، لا يحتاج إلى نقض نظري، ولا إلى مطولات في الاستبطان والتحليل، ما دام يوجد أمثال هؤلاء أمامنا يستصرخون ملء أفواههم، إننا عراة، نريد الدفء، لا الجنس، ولأن النظر أقوى من السمع...، اختلط الأمر على الناس فوقع الخطأ، فالجنس عند هؤلاء نتيجة...، وليس سبباً!!

الإيمان تفاؤل ثمل

غبطة السواد الأعظم من الناس وفرحهم مرتبط بيقين إيمانهم الراسخ بأنّ ثمة مسؤولاً عظيماً وكبيراً عارفاً بخبايا أمورهم وخفاياها، وهو الوصي المُدرِك والعارف والعالم والعليم والنبيه والحاذق وكل ما تتصف صفاته الحسنى بعرفان ما لا يعرفونه مطلقاً.

أمّا الكبار المبدعون فهم كذلك، لأنهم أدركوا الحقيقة المرّة من

وجودهم. لا أحد كبير، ولا من عظيم يفوق عظمة هذا الدفق الهائل لبراءة الصيرورة الأبدية. مثل هؤلاء متهمون دوماً بالتشاؤم. في حين للأكثرية ثمالة تفاؤلها بمسكرات، إيمان مريح.

ملمح وجودي

أنظر من النافذة إلى حيث تربض بيروت هناك تحتي...، لا شيء يبعث على التأمل بسحرها المزعوم، ولا بريق الحكايا المنقولة عنها يمكن أنْ تُستشفّ من تلك الكتل الإسمنتية المكدّسة بفوضى مملّة.

يتبادر إلى ذهني معظم الأحيان وأنا أحدّق بأبنيتها الكثيفة، سؤالان اثنان فقط، لا أكثر: كم من الأشخاص فيها يحتضرون للتوّ، وكم من امرأة جميلة تضاجع رجلاً غبياً في اللحظة ذاتها...

فرادة الأنا حساسية مفرطة

ثمّة أشخاص قلائل لا يستسيغون الاندماج المفرط في كيان امرأة، ولا طاقة لديهم للانصياع بأوامر أرباب العمل؛ لديهم من الطاقة ما يكفي لكي يرفضوا التسويات التي يتم بموجبها إخضاع الأنا لسيطرة الآخر بالزواج والشراكة أو في غيرها.

ولأن حساسية مثل هؤلاء مفرطة حيال ما يشعر به الآخرون،

تجدهم يرتدعون عن التعدّي على أنوات الغير. فإيمانهم اليقيني بحقيقة فرادتهم تجعلهم بحل من التسويات كلها، ومن فرط غيريتهم عقدوا العزم على تدعيم أنوات الآخرين. فلم يتزوجوا كي لا يدمروا عشق الذات.

قاعدتهم هي التالية: إن كنت تحبني اتركني وشأني، أو ساعدني على أن أوفّر لنفسي فضاء ترتاح فيه ذاتي القلقة دوماً من الآخر. فأنا بكل بساطة متعب من حمل «أناي».

وعود مرذولة

أمنّ المؤمن نفسه بوعد غريب، يهب الله بموجبه نهراً من عسل ونهراً من لبن، ودفق نهر لا ينضب من الخمر؛ عجيب أمر هذه الإغواءات المحرّمة في الدنيا. إنها لدنس وعلى المؤمنين الابتعاد عن قليلها في الدنيا ليغترف كثيرها في الآخرة، فاللبن والعسل يثمران طاقة جنسية مرذولة، ولا حاجة لتوصيف فحش حال المخمور أثناء الجماع...

ليس من جمال بدون قبح

مرارة النفس وقرفها يتولّدان من رتابة التكرار...، تكرار الأشياء

نفسها وفي الوقت عينه، فلا من جميل يبقى كذلك إنْ استمرّ متدفقاً على التوالي لحظة بلحظة.

فتذوّق الجمال لا يتمّ إلّا بالقياس لقبح الأشياء الحاضرة أمامنا، وعليه، يلعب القبح دوراً جميلاً بتزخيمه لرغبتنا أو تلهفنا إلى جمال عابر، وعابر هو فقط، لأن ديمومته تحيله إلى شيء قبيح، لأن القبح ينجم عَن رتابة تكرار الأشياء الجميلة.

الإبداع توتر نخبوي

لعلّ خمول العقل وبلادته يتأديان من الاستكانة التي يسعى إليها جموع البشر، عبر إيمان مطلق أو حبّ أبدي... أو وظيفة ثابتة. وحده القلق يزخّم الحياة ويرفدها بالتوتّر إياه الذي يصنع به الشاعر قصيدته، والرسام لوحته، والفيلسوف حلمه... الخ.

يبقى السؤال هنا عن علّة القلق، سبباً للاعتراف بأن مثل هؤلاء، يتّسمون بحساسية مفرطة، منذ أنْ ولد المرء من بطن أمّه، وهذا ما جعله عاجزاً عن الركون إلى ما أراح الآخرين، فلم يرتضِ بسعادة حياة الجموع الغفيرة.

تمويهات اللغة

عندما هاجم «نيتشه» فلسفة «سبينوزا»، باعتبارها بقايا ميتة، أو

بالأحرى طلاسم رياضية، عصية على الولوج والفهم، فعلها «سبينوزا» ليحمي أناه مِنْ خوائها، وليخفي حقيقة كرهه لنبض الحياة؛ حيث وجدَ فيه البعض شيئاً مِن التحامل غير المبرّر في نقد «نيتشه» اللاذع وسخطه على الفلسفة الأخلاقية المتجددة عند «سبينوزا».

إلّا أنه للإنصاف، علينا التأمّل بمعنى قول، لا تفجّر نقداً، ضدّ اللغة الفلسفية الباهتة، كالتي درج على استعمالها أنصاف المفكرين وأشباه الفلاسفة، خصوصاً وأن اللغة الجامدة تلك بمقدورها خديعة السواد الأعظم، ممن رام إلى تصديق ما لم يفهمه، ليس لأنه طلسماً...، بل لإيمانه بخسّة عقله وقلّة درايته بسمو الميتافيزيقا وتعاليمها إلى ما فوق الإدراك. إنها كذبة انطلت على الكثيرين ممن ألهوا ما لا يفهمونه، وقدّسوا ما لا يعرفونه.

وعليه، فاللغة التي بمقدورها التمويه لإخفاء منتحلي الصفّة، هي نفسها قادرة على فضح الأغبياء وأنصاف الشعراء، هذا إن نطق بها عقل مفعم بالحياة وممتلىء بالثقة والجرأة على هتك المستور... وتدنيس كل محرّم.

واحدة من حكم «نيتشه»

ثمّة أقوال مأثورة في المجتمعات الأهلية، تنمّ عن حكمة «نيتشوية»، منذ ما قبل «نيتشه»، فالأخير اكتشف براءة الأصل وصيرورة العود الأبدي ولم يخلقها...!

حدثتني أمي نقلاً عن أمها قائلة:

إنّ المرء هو كالطائر الذي ما إن تبزغ شمس الصباح حتى يحلّق في السماء مغتبطاً مختالاً، يمني نفسه في أنْ يصطاد ما مقداره مقدار ظله المنعكس على الأرض، بما يوازي حجم فيل؛ هذا في المرحلة الأولى، وما أن ينتصف النهار عند الظهيرة في المرحلة الثانية، حتى ينكمش ظله على الأرض، ويغدو متواضعاً بما لا يسمح له بالانقضاض على أكثر من أرنب صغير. وفي المرحلة الثالثة عند الغروب، يكون قد حلّ عليه التعب وهدَّه السعي وراء سراب أحلامه، فيخفت أمله بالحصول على ما أمَنَّ النفس به ساعة كان مفعماً بالحيوية والنشاط، فيتبدد طموحه شيئاً فشيئاً، وتتبخّر أحلامه، ليهبط على الأرض ويلتقط دودة أو حشرة يسدّ بها رمق جوعه، قبل فوات الأوان... إنها السيرة ذاتها لكل البشر، في كل الأزمنة والأمكنة، وهي تؤكد مفهوم العود الأبدي.

صدمة الرجل بالمرأة... تمثلات أمٍّ وعشيقة!!

حجّة «دوستويفسكي» لنفوره من المرأة، عندما قال: «إنني لا أحب النساء بطبيعتي، لأنهنّ صورة للسماجة والخرق...»، فكان شعوري هذا منذ أنْ رأيتهن يرتدين ثياباً ملائمة تطابق أجسادهن تماماً، وحين يفعلن هذا، إنما يبدين رأيهن في الرجل بكل وقاحة، كأنما يقلن له: «أنت حيوان»... لا أكثر.

هو سبب أكثر وجاهة مما ساقه الفلاسفة والمفكرون الآخرون المعتلّون بداء كره المرأة، وذلك لعلّةٍ كامنة في التجربة، تجربتهم معها. فالعاطفة التي يستجديها الطفل من امرأة أحلامه، بعد أن يكبر طبعاً، تفوق ما يحتاجه من جسدها.

ذلك أن العلاقة الملتبسة بين الأم وولدها يجب أن تنبّه النساء إلى فن إغواء المكامن الهشّة في عاطفة الرجل. لأنّ استثارة المرأة لغرائزه تمدّه بالرغبة لأن ينتقم من خيبته بهن، عبر النكاح...!!

الحب والكرم مسميات حقيقة مريبة

ثمّة سيطرة يمارسها المرء على الآخرين باسم الدين، باسم الحب، باسم الكرم... وتحت مسميات كثيرة، تبدو كما لو أنها طافحة بالغيرية المطلقة.

لكن إذا ما أردنا أن نكتنه ما يعتمل في أعماق النفس الإنسانية من خبايا، سنجد الأنا متخفية خلف تلك المسميات الطافية على السطح، للتمويه عما في داخلها مِنْ إسراف ومغالاة وجنوح نحو ذاتية مَرَضِية، تريد الاستئثار بإرادة الآخرين باسم الدين والحب... الخ.

وعليه، يجب أن نرتاب إذاً، ونتوقف لنفكّر بسبل الخلاص مِنْ هذه الأفخاخ المطمورة في حقل مزروع بورود الحب ورياحين الدين.

فلسفة قانونية

تقاس مكانة القائد الفذّ بمدى قدرته على تأويل القانون بما يتفق مع غايته.

لكن علينا الانتباه، فللقانون مدىً، ولديه مجال للتمدّد في اتجاهات يجب ألّا تتجاوز نطاق الخلاف على ما تعنيه مدلولاته المباشرة وغير المباشرة، وفي هذه المسألة أو تلك.

فإن أتاح القانون فضاء واسعاً للتأويل والتفسير، لكن وجوده يبقى كابحاً ضرورياً، لئلا يجنح الناس بعيداً عن معايير الانضباط السياسي في الأنظمة كافة.

وعليه فالضعفاء وحدهم من يحتكمون دوماً إلى حرفية قانون، قد لا يؤدي غرضه ما لم يستخدمه عقل مرن، لأنّ العقول الجامدة تقتله...! والأغبياء هم أيضاً لا يتفاعلون مع ما بعده... أو ما قبله، فيغدو انفعالهم بحدّه السلبي الجامد، سبباً للانقلاب عليه.

شفاعة المسيح... عن أية خطيئة نتكلم!!؟

الأسطورة اليهودية القديمة تلك التي فسّرت أصل الخليقة وفصلها باعتبارها نتيجة ما ارتكبه آدم بحقّ السلالة الإنسانية عندما قضم تفاحة حواء الغاوية، مخالفاً أمر الله، فكانت الخطيئة الأولى وكان الإثم

الأول سبباً لخروجه من علياء الجنّة ونعيمها إلى عالم الشقاء والتعب في الدنيا. استتبعها الدين المسيحي بردّ تكفل به شخص المسيح «الرب» هذا الذي افتدى بجسده الخطيئة الأولى ليخلّص الإنسان من شقاء المخالفة وعذاب العصيان، فعلها شفاعة بنا، علّ الإنسان يعتبر، فينصاع لمشيئة الله ويفوز بجنّة السماء المرجأة إلى ما بعد موته.

وهنا، علينا التنقيب عن مكمن شفاعة الإسلام، وارتباطه البنيوي بالتراث الإبراهيمي للأديان السماوية المتلاحقة..!!

«شوبنهور» ابن أمّه

مرّة ثانية... وثالثة... أو عاشرة، لا أدري كم من شذرة كتبت عن العلاقة البنيوية المتأصلّة، بين نتاج المُبدع وحياته، لأجد نفسي أعود وأكرّر ما سبق وأن أشبعته تحليلاً وتفسيراً؛ فالقول مثلاً، إنّ وراء كل رجل عظيم امرأة، قيل فيه الكثير عن مقاصده المضمرة وخلفياته المعلنة. فما أن فرغت من قراءة موجز مختصر عن حياة فيلسوف التشاؤم الأوّل «آرثر شوبنهور»، حتى أحسست بتأثير المرأة المتمثلة بأمّه في مجمل نظرته التشاؤمية التي رأت «العالم شرّاً».

تصوّر نفسك مهملاً ومحتقراً في بيت أم، لا همّ لها سوى تأمين نزواتها الرعناء، وهي على أوهامها، كانت تظنّ أنها خُلِقت للأدب والمعرفة. ليس إلّا «شوبنهور» عاش عار أمّه التي لم تشعره يوماً بدفء حنانها، ولم تحتضنه لحظة لتحميه من صقيع حياتنا الباردة أبداً.

وهل ثمة شيء في الدنيا أبشع من أنْ يقرأ المرء رسالة كالتي بعثتها له أمه: قائلة: «إنك لا تُحتمل، ومِنَ الخير لك أن لا تأتي إليّ بعد اليوم، أريد أنْ أسمع أنّك تعيش في سعادة، لكنني أضحي بكل شيء، كي لا أرى وجهك البغيض، إنّك صورة مجسّدة لشقاء البشرية».

لعل «شوبنهور» كتب نصوصاً فلسفية أصيلة للردّ أولاً على مزاعم أمّه الأدبية، وللردّ على تبجحاتها الفكرية. كتب ربما ليقول لها، بأنك لست جديرة بما اعتقدته في نفسك، فأنتِ نذرتِ نفسك لأوهام وادعاءات فارغة، ولم تخلقي إلّا لعذاب البشر وقهرهم؛ وأيضاً كتب ليقدم ذاته عارية من حقيقة أوهامنا العاطفية المنقرضة على التوالي يوماً بعد يوم.

إنجاب المرأة عودة الحقّ إلى صاحبه

وأخيراً، قرّرت المرأة بعد أن تعلمت وتثقفت وعرفت حقوقها، بأنها ما دامت هي مَنْ تحبل وتُنجب وتربي أطفالاً كانوا ينسبون لذرية الرجل؛ فإذاً، هي من عليها واجب تحديد نسل عائلة زوجها، ولها الحقّ وحدها في أنْ تقرّر ما إذا كانت جاهزة للتضحية بربيع عمرها من أجل رعاية طفل أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة على الأكثر، فإنجاب عشرة وما فوق، صار يقتصر على نسوة المجتمعات الذكورية التي لا حيلة للمرأة فيها إلّا الانصياع والطاعة، كما الخضوع إلى مشيئة رجل

صارت رغباته من كينونة المرأة الصالحة التي عليها أن تعيش مِنْ أجله هو...! ومِنْ أجَلِه، عليها أنْ تؤمن بأنّ سعادتها مِنْ رفاهيته، وتعاستها مِنْ حزنه.

لكن اليوم، وبعدما أمسكت المرأة في المجتمعات المدنية الحديثة بزمام المبادرة، انقلبت على ضعفها، لتنكمش عن الإنجاب. لا بنتيجة التحولات الثقافية العامة للمجتمع، ولا بسبب طوق العائلة الصغيرة إلى الرفاه الاقتصادي والرخاء الاجتماعي، فحسب، بل لتحكّم المرأة بما كان يقرّره الرجل وحده في المجتمعات الذكورية، فلا تصدقوا رجلاً لا يرغب بإكثار ذريته، إنْ تحمّلت المرأة وحدها عبء ما صار يتشاركها فيه الرجل.

وجه الشبه بين «إدوارد سعيد» و «فرانزكافكا»

على الرغم من الفارق الكبير في التوجهات والاهتمامات، وحتّى في مستوى الإمكانات الإبداعية بين «إدوارد سعيد» العربي و «فرانز كافكا» الأوروبي، ثمّة أسئلة وجيهة عما يجمع الشخصين، لا من حيث وجه الشبه في صورة كليهما، ولا من حيث احتدام علاقتهما الصاخبة والمريبة بأبويهما القاسيين، ولا لتقاطع الاغتراب في هوية كل منهما حيث عاش الإثنان في منفى حياتهما الخاصة، بنصف اليهودية ونصف الألمانية عند «كافكا»، ونصف المسيحية ونصف العربية عند «سعيد»

فحسب، بل لحالة جسديهما المتوترين لصالح عقل أثمر عند كافكا إبداعاً روائياً قلّ نظيره، مثلما أثمر عند سعيد نقداً فكرياً نادراً.

هذا قبل أن يستدرك الأخير موهبته الأهمّ، قبل وفاته بوقت قليل، عندما كتب لنا سيرته (خارج المكان) بأسلوب ممتع، توجَّه عندي روائياً أفضل بما لا يتماشى مع كل نقده ونتاجه الفكري الجيد.

هل يولد الإبداع مِنْ رحم اضطهاد عاطفي؟

لطالما أخذني التفكير بعلة الإبداع إلى أسباب تنبع من نطاق التعويض عن شحّ أو فقر، أو بمثابة صرخة مدوية للموجوعين... أو... أو... الخ.

لكن لم يخطر على بالي مرةً الاسترسال في التفكير بما يمكن أنْ يؤول إليه إهمال طفل والاستهتار بمشاعره، مِنْ شحن، قد ينفجر لاحقاً إبداعاً فلسفياً، كما حصل لـ «شوبنهور» مع أمّه. و «كافكا» مع أبيه. يقول «كافكا»: «كنت أبكي ذات مرّة في الليل استعطف جرعة ماء، ليس عطشاً بالتأكيد، وإنما على الأرجح كي أثير إزعاجاً من طرف وأتسلى من طرف آخر. وإذْ لم تنفع عدّة تهديدات شديدة، أخذني من السرير (وهذا الكلام موجّه لأبيه) وحملني إلى الشرفة، وتركني هناك وحيداً أمام الباب المغلق فترة وجيزة، وأنا أرتدي القميص الداخلي...». وأردف يقول: «لقد أصبحت مطيعاً بعد ذلك، لكنني

أصبت بخلل داخلي، وحتّى بعد سنوات، ما زلت أعاني من التصوّر المؤلم بأنّه يمكن للرجل العملاق (والدي) الذي هو السلطة العليا، أنْ يأتي بلا سبب تقريباً ويحملني من فراشي، ويضعني على الشرفة، وأنْ أكون إذاً، مثل هذا اللاشيء بالنسبة له».

إن الشعور باللاشيئية هو الذي حمل شخصاً مثل كافكا إلى إظهار مكونات نفسه المتلبدة بقهر عاطفي، وذلك للردّ على مهشميه عبر قبضة عقله المتفجر، قولاً صارخاً لأبيه والى كل من يهمّهم الأمر، يا أيها السادة كنت أستحق اهتماماً أكبر، باعتباري شيئاً مهماً، وليس عابراً في هذه الحياة القصيرة أبداً.

كذلك حذا حذوه «شوبنهور» الذي كان قد أحسّ بقدر كبير من الإهمال والاحتقار، بقوله: «كنت أشعر أبداً أنني كائن تافه، لا أهمية لي في المنزل»، إنّ تجاهل أمّه وإهانتها الدائمة له، أيقظت فيه إحساساً سوداوياً، كرّسه فيلسوف التشاؤم الأوّل، وفيلسوف الإرادة الأمثل، لكن للحيطة والحذر، على الآباء والأمهات ألا يقتدوا بوالد «كافكا» وأم «شوبنهور»، فليس كل الأطفال «كافكا» و«شوبنهور». ولا انفعالاتهم تفعل بالضرورة فعل هذين المبدعين العظيمين.

مِنْ بعد نيتشه:
ثمّة معنى جَديد للفلسفة كما للأدب

ما زلنا ننشغل بالبحث عن توصيف قاطع وجازم للفلسفة، باعتبار أن لها ماهية قائمة بذاتها، وليست ميداناً لتفاعل مستجدات العلوم واستكشافات المعرفة المؤثرة في العالمين السفلي والعلوي، على حدٍّ سواء.

ذلك أنّ التحولات الحاصلة على قدم وساق مع كل اكتشاف جديد، تصيب الفلسفة بشيء من عسر الهضم، لتتقيأ ما في بطنها، فبعد أنْ كانت تلْتهم كل شيء، صار عليها أن تفسّر علّة احتوائها التاريخي بالذي بات ليس مِنْ شأنها (الرياضيات ـ الهندسة ـ الطب... الخ)، إلا أنه صار للفلسفة سجنٌ مِنْ نوع آخر وهو مختلف. فالتفكر بما سيؤول إليه المصير بنتيجة ثورة العلوم وتفريخاتها، ما زال شأناً فلسفياً خالصاً.

ومع ذلك فالمعيارية المضحكة ما زالت متحكمة بعقول بعض مَنْ يقول على سبيل المثال: «لقد وضع «نيتشه» عدداً لا بأس به من المؤلفات التي قد لا تشكل فلسفة خالصة، ولا أدباً خالصاً».

لكن الاستنتاج المنطقي لما ساقه هذا البعض، بأن نيتشه لا هو بفيلسوف ولا هو بأديب، إنما هو ممسوخ مِنَ الجبلتين، وهذا ما يعطي معنىً جديداً للفلسفة كما للأدب.

الميتافيزيقا وعد مرجأً

يمكن اعتبار النصّ الفلسفي رواية عما حدث في الماضي السحيق أو عما سيحدث في المستقبل البعيد هناك في غياهب الميتافيزيقا. فنفترض وجود فاعل لا نراه، ومن ثم نقوم بالاستدلال عليه من خلال ما نستشعره بالضرورة، ضرورة إحساسنا الذي لا يمكن إلّا أن يكون موجوداً، ونكمل رسم المشهد الافتراضي ذاك بتوكيد وجود الموجود الواضح بقوّة جهلنا لمواصفاته. «الميتافيزيقا وعد مرجأ».

الفلسفة الوجودية أخرجت السؤال الفلسفي من حيّز الغيب لتجعله رواية مخضبة بالأسئلة عن سبب قلق الإنسان وأرقه الدائم حيال علّة وجوده، ككائن معتلّ بعاهة انشداهه بحيز الغيب، في حين أنه موجود هنا على الأرض، لا في السماء...

ليس مِنْ ذي عطاء مجاني

الغيرية المفرطة عند الشخص، ليست صحيّة، إذ من غير المعقول أنْ تُعطي ما في جيبك إلى محتاج، لتحلّ محلّه محتاجاً إلى ما أعطيته إياه، قبل لحظات. ففي تلك اللحظة إما أنْ تكون مستلباً إلى حماسة عاطفية متهوّرة ستدرك مآلها بعد فوات الأوان، وإما أنْ تكون مصاباً بعلّة مرضية منبثّة في قعر الذات التي يبدو أنها تعيش من أجل أن تستحصل على نظرة ممتنة لعطائك.

بمعنى أن ما يستجديه المرء مِنْ لذّة خاطفة لا تتعدى اللحظات، يخفي وجهاً آخر من أنانية مفرطة، تتمظهر على غير ما تبدو عليه، فهي ليست معطاءة، ولا هي كرم على درب، ولا تقدّم مصالح الآخرين على مصلحتها.

فثمة ورقة شفافة وغير مرئية تحجب المصالح الذاتية للشخص عن غيريته. مع هذه الحال، يجب أنْ ترتاب بأمر مَنْ يعطيك أكثر مما يستطيع. لعلّ في المسألة خطب ما يستوجب بك التنبّه إليه، لئلا تحصل منه على ما أراده هو منك، شفقة مردودة.

قليل من التهور يُشفي

ذات يوم، كنت سأنفجر من غضب، حقنه فيّ أحد الصبيان المتهورين. بصفتي تربوي ممنوع عليّ أنْ أردّ الإساءة بإساءة مثلها؛ فرجاحة عقلي تفرض عليّ أنْ أمسك نفسي عن الردّ بالمثل.

استيقظت بعدها عند الصباح مرهقاً، وقد استبدّت بي رغبة جامحة إلى أن أُفلت نفسي من كوابح اللازم وما لا لزوم له. حتّى إذا ما دخلت الصفّ استدعيته على الفور. وقف أمامي. وصفعته بكل ما أوتي لي من قوّة، لا لشيء، فقط لأفضفض عن نفسي المتعبة من شيء تلبّد في داخلي إلى أن صار إخراجه منّي أهون عندي مِنْ المقيتة بموجب قوانين التربية الحديثة.

فإذا كان الغضب ينهش دواخلك، بعد أنْ أدمت الجراح نفسيتك المهمشة من جرّاء حنقك على ما تعرّضت له من تعدّ ظالم؛ واستمر الحال على المنوال ذاته، مدّة طويلة، سيتفرّخ في جوانيتك دمامل أخبث من ورم السرطان. ولتقف على ما صيّره فيك هذا الداء، تجرأ لمرّة واحدة واهجم على من تعدى عليك من دون أن تحتسب لخطورة العواقب المترتّبة على صدّ المعتدي. فإذا وُفقت ونلت منه، ستفقأ ورماً داخلياً حجمه بحجم ما تستشعره من راحة بعد إزالته. وإن لم توفق ستشعر بالرضى من نفسك، لأنّك حاولت.

فالعبرة في المحاولة هنا!

للعظماء سخافاتهم أيضاً

كيف يمارس الفلاسفة الجنس؟ سؤال يضمر استغراباً حيال من ليس لدينا عنهم، إلّا تلك الصورة النمطية لرجال مهمومين فقط بالتأمّل والتفكير في أمور سامية، فيما كان عليه أصل البشر مثلاً وما قد يؤول إليه مآل البشرية بعد الموت. أمّا ما عدا ذلك، فسخافات بعيدة النسب عن الفلاسفة المنشغلين دوماً بما هو أرفع بكثير من رذائلنا الجنسية الخسيسة. مثل هذا كمثل أن تسأل كيف للملائكة أن تنتشي بسكرة حفلة «ويسكي» صاخبة؟ أو كيف للأنبياء والرسل الظهور وهم عراة، أثناء ممارستهم الجنس مع زوجاتهم؟

أسئلة مدنّسة بحرم تغميس طهارة مَنْ جعلناه صورة لذاتنا، فأحلناه إلى ما نريده ـ ما نرغبه ـ ما نستسيغه، فانتزعناه مِنْ نفسه، وحولناه إلى غير ذاته، أيقونة معلّقة على جدران العقول المغلقة.

يبقى، ماذا لو كان السؤال معكوساً: كيف لـ هيفاء وهبي وأمثالها مِنَ الرجال إنْ تفلسفوا، أو تمثلوا بورع القديسين. هل أنّ استغرابنا من الحالة الأولى، يوازي دهشتنا من الحالة الثانية؟!

إحذَر فالمرأة أقوى مما تظنَ

ما يعتمل في داخل كل إمرأة من تناقضات عاطفية، تتواشج فيها الرغبة في الاستئثار والتسلّط بالقدرة على الصبر والتحكم، راسخ بقوّة جهل المرأة لعلّة مصابها الأليم؛ أليم لأنّه يصيب الرجل بحيرةٍ وتردد بما يحيله إلى كائن ضعيف أمام قوّة تأثيرهن على ما يودّ الإقدام عليه، ولا يستطيع القيام به. على ما يرغب به... وما لا رغبة لهنّ فيه... على ما أحسّ بأنها تريده...، قبل أن يتبدّل مزاجها بعد لحظة... وأيضاً ما صارت تمقته فيه بعد أنْ استنفدت حبها له، فاستحال عندها غير محبوب، لأنه استجاب إلى ما تودّ الحصول عليه، لتتخلّص منه: وهكذا دواليك...

بماذا يتسم الراوي؟

أنْ تروي... يعني أن تفرّغ مخزون وعيك بأحداث حصلت معك ذات يوم فعلاً، معطوفة على وقائع وأحداث موجودة عندك بالقوّة... إذ إن تطعيم ما هو موجود بالفعل بما هو موجود بالقوّة، يمكّن الراوي مِنْ أنْ ينفذ بوعيه على ما يستشعره في لاوعيه، عبر استرسالاته المتخيلة نحو أماكن تعبق بصور ساخرة مضحكة أو مخيفة، وأحاسيس بائسة ـ شقية ـ لذيذة أو مقزّزة. على هذا، كل الروائيين الحقيقيين هم مرضى شطحات خيالية تنحو بهم إلى التفكير بما لم يفكَّر به، يستشعرون ما أُلقي عليه الحُرم. فقط لأنهم تجرؤوا على الاعتراف أمام الملأ، فأفصحوا عن رغبتهم الدفينة بارتكاب معصية قتل رجل كريه، وتعذيب زعيم قاهر، عن شوقهم إلى التمتع بلذة العيش في أماكن لم يروا مثلها من ذي قبل، عن لهفتهم إلى مضاجعة امرأة، ليس لمواصفاتها مثيل على كوكب الأرض.

يستكشفون بواطن الظواهر من خلال ما يشعرونه حيالها. إنّهم ببساطة، يروون لنا قصّة أحاسيسهم بالجمال والقبح، بما يجب أن يكون وما لا يجب أن يكون. يصفون الكائنات والأشياء على ما يشي للقارىء بأنه قادر على البوح بما أحسّ به من محرّمات فظيعة، فالراوي يتسم بالجرأة على الاعتراف بما يعتمل في نواياه، شرط أن يمتلك أدوات التعبير عما يوتّره، لكي يتطهر منها، ويتخلّص من ذاك الذي لو أبقاه يغتلي في داخله، لآل إلى ما آل إليه نزيل مستشفى المجانين.

سرّ عبقرية «فرانز كافكا»

ما إن تقرأ تحليلاً رصيناً عن تحولات الرواية أو القصّة في القرن العشرين، حتّى يتردّد اسم «كافكا» مرات عدّة، وبطريقه تدعو إلى العجب مِنْ صيت عبقري فرض نفسه بقوّة لا تُضاهى، على الرغم من شحّ ما كتبه في عمر قصير.

والسرّ في ذلك لا يقتصر على ما أجمع عليه معظم النقّاد والروائيين، مِنْ أنه استطاع النفاذ إلى أعماق الذات، مستكشفاً أغوار النفس الإنسانية ومتاهاتها الأعقد من أنْ يدرك كنهها روائي لا يمتلك إحساس كافكا، إنما يتعدّى ذلك إلى ما دشّنه من مساحة جديدة، لم يطأها قلم روائي، من ذي قبل.

ولأنّ لكافكا حساسية فائقة، فهو مِنَ النوع الخاص والنادر جداً. فشعوره باللاشيئية مثالاً، حيال أب صارم في تربية إبن أُخضِع إلى كل ما جعله يُستلب طوال حياته لإرضاء مَنْ لا يرضى. كما قضى حياته يشرئب بعنقه، ليغدو بطول عملاق وهو قزم. إن إحساس كافكا بأنه خيّب آمال أبيه وعائلته كلها، بجسده النحيل والعليل كما بوظيفته المتواضعة، هو ما جعله يستفيق يوماً، ليجد نفسه حشرة في «الإنمساخ» إذْ راح يستشعر ما قد يرونه فيه، عندما أحس ثقل وجوده على ما لا يرتجونه فيه. وذهب بتماهيه مع الحالة إلى حدّ أن تقمّص سلوك حشرة تشعر بما يشعر به إنسان غارق بالشقاء، جراء خيبته من نفسه، ومن عدم استطاعته العودة إلى ما يأمله الأهل فيه.

أهمية «كافكا» تكمن في أنه أجاد التمثل بإحساس الحشرة، في حين أنه إنسان يتعذّب مِنْ مقت الأهل له، عقب محبّة دافئة، أحاطوه بها، قبل أنْ يصابوا بالملل مِنْ محبتهم للذي لا يعدو عن أنْ يكون حشرة، لا طائل منها.

معنى غير إنساني

تتكاثر البشرية باطّراد نحو ما لا غاية له، سوى التكاثر والتكاثر على غير هدى. وإذا ما تأملت في هذا، قد يخطر على بالك سؤال وحيد: ما معنى أنْ تكون إنساناً؟

دواء العلّة الوجودية

يدعو «ألبير كامو» إلى التمرّد على ما رسمته الجماعة للفرد... عل ما كبّلته به من التزامات وواجبات، لا معنى لها على الإطلاق، لأنها لم تكسر جليد الملل والرتابة المقيتة في حياتنا اليومية.

وعليه، وحده الشغف... شغف الاستطلاع واستكشاف مجاهل الوجود، يجعلنا نلتهي عن مرارة خيبتنا في حياة، لم نخترها. فلنتمرّد إذاً، على الكوابح الأخلاقية، ولنعبث بالروادع الدينية والاجتماعية، إذا ما كان هذا يفضفض عن بالنا، فينسينا مقت وحدَتِنا ويلهينا عن داء مصابنا الأبدي بهذا القلق الوجودي من العدم السرمدي!!

ثمة جروح تلتئم من تلقائها

مثلما يتمّ التوازن بطبيعة وجود كائنات وأجناس متناقضة، من أجل أن تستوي الحياة، زاخرة بتنوعها واختلافها، أيضاً وأيضاً، ثمة انسجام لا إرادي يحصل داخل الشخص المتوتّر من جراء أذية أو إهانة آلمته، إلى ما جعله مستيقظاً طوال الليل، أو مؤرقاً من جرح نفسي، هدّ كيانه.

في صباح اليوم التالي، يُشفى بنتيجة استعاضته عَنْ جرح بجرح آخر، عن العلّة الأولى بعلّة أسوأ، بعد أنْ استبد به إرهاق جسدي، حلّ محل أذيته النفسية، فأنساه سبب المشكلة كلها.

إنّه لجدل عقيم، يقصّر مِنْ أعمار الملعونين بحساسية مفرطة، أقحمتهم في دوامة الاحتقان والإفراغ المستمر.

«نيتشه» فيلسوف أخلاقي

يُلتبس على بعض من تنمّط «نيتشه» عندهم، كفيلسوف هدام للأخلاق، أو كأخلاقي مسرف في أخلاقيته؛ إنّ الفارق في التشخيص يكمن في نزوع المحلّل للارتكان إلى وصف تام لشكل فلسفي مُنجز، مع أنّ ذلك لا يصحّ على نيتشه الذي رام من فرط أخلاقيته إلى الثورة على ذاته لتدمير أخلاقياتهم المنبثة فيه، والتي قال: «إنها في حقيقة أمرها أخلاقنا التي لا يمكن تجاوزها إلّا بالاستناد إلى الأخلاق نفسها».

وهنا نجد أنّ تحسّس «نيتشه» المفرط من الأخلاق مرتبط بالتأثير الكبير للقيم الأخلاقيّة في نفسيته المكبلة بكوابح أخلاقية يروم إلى التمرّد عليها، ولا قدرة له على ذلك. وفي هذا السياق، نكرّر للمرّة الألف: إن سعي «نيتشه»، انصبّ على إبراز عنصر الخلل واللاإنسجام بين القيم الأخلاقية المفبركة عبر تاريخ الرسالات السماوية والأرضية من ناحية، وطبيعة الإنسان المفطور على حبّ الذات والأنانية والعدوانية... الخ، مِنْ ناحية ثانية. إنّه يبحث عن سبيل ناجع للمواءمة بين سطوة الأخلاق المخترعة، ونزوة الإنسان الفطرية إلى التفلّت من كل الكوابح الأخلاقية، وذلك مِنْ أجل ولادة إنسان غير مشوّه، ولا مُربك على ما كان يبدو فيه أنه يعاني، كشخص يرقص وهو عارٍ أمام الجمهور، مِنْ دون أنْ يجيد الرقص، تصور المشهد، بالتماهي مع خجل مغنٍ فاشل.

عن العولمة...

إلى مَنْ فاته أن يسمع مراراً وتكراراً تفسير أحوال العولمة، باعتبارها نتيجة وليست سبباً لما يجري في عالم اليوم، نذكّره بأنّ ثورة التكنولوجيا والاتصالات الفاعلة بقوة متعاظمة في كل المجتمعات المعاصرة، لم يقمْ بها الغرب عن إرادة وتصميم، ذلك أن سياق التمفصلات الحضارية المتنقلة من مكان إلى آخر، وفي أزمنة مختلفة، أدّى ولأسباب لا يتسع المجال لذكرها هنا، إلى أنْ يحتل الغرب مركز

حضارة اليوم، بعد أن ورث عن غيره إنجازات حضارية، تلقفها وتفاعل معها، كمثل ما فعلت الحضارات السابقة، ليطورها على ما صارت إليه تكنولوجيا العصر.

بهذا المعنى، نودّ الاعتراف هنا بحقيقة تطور المجتمع الغربي من جهة، مقابل تخلّف مجتمعات العالم الثالث من جهة ثانية. ويجب ألاّ تثنينا عن الإقرار بهذه البداهة، مكابرة خطباء منابرنا الريفية وإصرارهم على رفضها.

ما نود قوله: إن فتوحات العولمة للعالم البعيد والنائي بقوّة كبسة «الماوس» لا بحدّ السيف ولا بقنابل الطائرات، قد أثمرت رخاءً وطفرة اقتصادية غير مسبوقة في الغرب، لكنها في الوقت ذاته، رتبت عليه أعباءً ثقيلة ومسؤوليات جساماً بعد أن صارت الأوضاع تنذر بالتفلت من قبضة الغرب المتحكم إلى ما يهدّد المجتمع الغربي نفسه.

فالتكنولوجيا التي استعملها الغرب لفتح البلدان المنغلقة كانت أمام استثماراته الاقتصادية والسياسية قد أثارت هي نفسها شهية المتشددين في تلك المجتمعات النائمة بغية مجابهة الغرب، وتدميره بالوسائل المستوردة مِنَ الغرب نفسه.

فإذا ما أردت أن تنعم بالسيطرة على العالم، عليك أن تدفع ثمناً باهظاً، أقله أن تبقى عيونك مفتوحة على ما يمكن أن يحاك هناك في البعيد، ضدَّك. وأن توسع مِنْ مجال حركتك الاقتصادية والسياسية إلى مرامٍ بعيدة، عليك أن تتوقع توسعاً وبالقدر نفسه من احتمالات تعرّضك لمخاطر جديدة.

لعلّ سياسات الغرب اليوم، رازحة تحت ثقل مسؤولية صعبة وغير مقدّرة كانت، قبل أن يعهدوا إلى أنفسهم مهمة الدفاع عن مجتمعاتهم، على ما صارت تقتضي به حماية باريس مِنْ تدخل في الصومال، أو من تدخل عسكري في أفغانستان لمنع الهجمات عن واشنطن. والهجوم الاستباقي على إيران بغية الدفاع عن لندن، وهكذا دواليك...

إنّ إدارة عالم متقارب ومنفتح، بات يحتاج إلى إدارة عقل أوسع من مدارك «بوش» الذي دمّر ما أراد، أو بالأحرى، ما ادعى إصلاحه... ولم يعتذر!!

إرباك «وليام فولكنر»

«أمشي تحت وطأة الثقل المادي للوجوه المقطّبة الشاخصة نحوي». لطالما كنت أبحث عن معنى كهذا، تعبيراً عن حالتي أنا، سيري على مرأى حفنة من أشخاص كانت تلهو بمراقبتي، تنقيباً عن علّة غيرهم، لكي تحول جلساتهم الطويلة إلى جلسات مسلية... إلى أنْ وجدتها أخيراً في واحدة مِن قصص «وليام فولكنر».

إن الحساسية المفرطة لذاك الروائي المبدع، تؤكد لي تلعثم لسانه إذا تكلّم على مسمع أربعة أشخاص، وإرباك مشيه إن سار على مرأى خمسة رجال. إنها ضريبة، ليس لها من أهمية أمام الإنتاج الخلّاق لمن أصيب بعاهة الإرباك، وهي أقل مِنْ عاهة الخبل عند السواد الأعظم مِنَ القادة السياسيين.

ذبول الشغف

بدأت تنضج لدي قناعة شيئاً فشيئاً ما لم أقل رغبة هي، للمصالحة وللتآلف مع الشيء الذي كان لمجرد التفكير به يرعبني...!.

لست متشائماً أبداً، لكن الحياة فقدت بعضاً من بريقها عندي، فخسرت المناظر والأصوات والأفكار نضارتها، بسبب العتق... عتقي أنا.

ذبل شغفي بالنساء الجميلات، واضمحل شوقي لتأمّل هدير موج البحر في يوم شتائي عاصف، فاستنفدت مبعث الإثارة كلها في أحاسيسي المتوقدة كانت لالتهام لذائذ الحياة بفجع صبياني، خبا... بعد أنْ فَقَدَتْ طعمها.

تمنيات فاشية

في لحظة مقيتة من لحظات الحنق التي تتوالى عليك، قد تداهمك خواطر غريبة، كأنْ تفكّر كم هو عدد الأشخاص الذين يعيشون من دون هدف ولا مبرّر، أو بالأحرى، من دون سبب وجيه لوجودهم، أصلاً. ساعتئذٍ، قد تخطر على بالك تمنيات ميتافيزيقية مستحيلة، كما لو كنت أنت الخالق القدير على خلقهم، أو انتقائهم فرداً فرداً!

مَنْ يتشدق بالمعرفة وهو حمار... مَنْ يشمّر سرواله إلى نصف بطنه، على أنه مرتّب. مَنْ يضحك وحده عندما يتفوّه بنكتة سمجة. مَنْ

يغلّف خبثه ولؤمه بهيئة شخص وديع ومحبّ. أضف إليهم شخصاً صادفته البارحة يقود سيارته بغرور، وباستعلاء بغيض وهو ينظر إلى من يمشون على الرصيف، على أنه متفوق الذكاء وشاطر، لأنه سرق ثمنها بغفلة من الجميع.

لن أعذّبهم، فقط سأنتزع أرواحهم من دون ضجة، فمثل هؤلاء، يثقلون الحياة بسماجة، لا تُطاق، وكم كان مِنَ الأفضل لو لم يولدوا في الأصل.

ميزان قيمة الفرد

هل من خسارة إذا حذفنا من الستة مليارات نسمة، خمسة مليارات وتسعماية مليون. ولا ننسى غربلة البقية المتبقية، ليستحيل عدد الجديرين بالحياة أقلّ من عدد أفراد القبائل غير المكتشفة في غابات «الأمازون». وإذا كنا أسخياء فثمّة من سيعتبر هذا الفعل انتقاءً عنصرياً فجّاً، وليس ديموقراطياً. حيث لا تسامح فيه حيال من خلقهم الله هكذا مؤمنين بالفطرة؛ لا عقل يخيّرهم ولا منطق يسيّرهم.

إن دبلوماسية المخاطبة تملي عليّ الابتعاد عن الصرامة الجازمة في مثل هذا التصنيف القاطع. لكن علينا الاعتراف من دون لفّ ولا دوران، بأنّ الطفل الذي يُحاط برعاية أبوين سويديين يتقاضيان في الشهر أكثر من خمسة آلاف دولار، لا يمكن مساواته مع طفل عائلة

أفغانية من ثلاثة عشر فرداً، ويعيلها أبٌ «مشحّر» لا يتعدى راتبه التسعين دولاراً شهرياً، صحيح أن لا ذنب للأطفال... لكن أيضاً لا ذنب لنا نحن حينما يكبرون...!!

علّة التكاثر

تتكاثر ذرية البشر من جرّاء هذا الإخصاب المريع لمن لا همّ لهم ولا شُغل سِوى الإنجاب.

فثمة من لا هوية له، وثمّة من يشعر بأن لا معنى لوجوده، إلّا إذا صار أبو علي وإمْ عمر، وأبو جورج وإم اسحق... أكتفي بهذا، لجهلي بالتسميات المتبعة في الأديان البوذية والكونفوشيوسية الأخرى...

فالمتميز الفريد برجاحة عقله، يريد أن يعيش إبداع ما يطيب خاطره، يريد اختراع أساليب بارعة لتذوّق ملذات الحياة، عندها لن يبقى لديه متسع من الوقت لفعل ما يفعله الآخرون، ولا مجال لأنْ يُنجب ويتكاثر على نحو ما تتكاثر به القطعان البشرية الآخذة في الازدياد.

والنقد كذلك موهبة غير أكاديمية

يحتاج الناقد الحقيقي، أياً كان نوعه، عيناً ثاقبة، لكي يخترق

المحجوب ويستنبش المطمور من ما يُعرض أمامه. أكانَ نصاً أدبياً، أو مسرحاً تعبيرياً، أو مقطوعة موسيقية أو رسماً انطباعياً. الخ.

الناقد الفذّ، يحتاج إلى حدسٍ فائق، كي يلتقط ذبذبات انطباعه عما يراه أو يسمعه، بطريقة لن يجيدها معظم النقّاد الأكاديميين الذين يقضون نصف وقتهم في حفظ قواعد النقد، والنصف الثاني في محاولة تطبيق المحشو في رؤوسهم، كمعادلات رياضية..!

للارتواء حياة واحدة لا تكفي..!

يخبو الحسد عند المرء، كلما خفت إقباله على المنافسة، أي كلما تصالح الإنسان مع نفسه، واقتنع بما لديه، بعدما أضناه الطمع في الحصول على ما لم يستطع الوصول إليه.

وما إن تتجاوز مرحلة «الفجع» في مرحلة الشباب، ستدرك حقيقة عجزك عن مضاجعة النساء كلهن، كما ستعرف بأنك لن تستحصل على أكثر ما تشتهي رغبتك المحدودة، بصحن ملوخية وامرأة واحدة، في حيّز أضيق من فضاء اللانهاية...!

ومع ذلك، اقتنع ولا تيأس.

ذبح القطعان

الزعيم الذي لا يُضاهى هو الذي يستطيع أنْ يجرّ الناس من أذنيهم إلى حيث لا يرون إلّا هيئته، ولا يسمعون إلّا نبرته.

أو هكذا تُساق القطعان إلى مذبحها؟!!

غباء أكاديمي

عندما يتنامى إلى مسمعك حديث غبي كالذي دار أمامي، منذ لحظات بين ثلاثة أكاديميين، مِنْ نوع الأساتذة الملتزمين بأداء فريضة شرحهم لدروس حفظوها ظهراً عن قلب، وهم يتجادلون في أية مرحلة تتفتّق فيها عبقرية المبدعين، ستجد نفسك كالأبله تنظر إليهم بفضول شخص، أدرك كيف ترتسم هالة العظماء في عيون رجال آمنوا بضعفهم، إلى حدّ يثير الشفقة.

حيث لا هوية قومية للإبداع، ولا سبب مدرسي للعبقرية، كما أنّ لا مرحلة زمنية لانبعاث هذا الدفق الحيوي في عقل غير الأكاديمين.

لا تهب ضعفك... لله يا مؤمنين

أنْ تؤمن، يعني أنْ تهب نفسك إلى الله، لكي ينزع عنك همومك الدنيوية وينتشلك من الضياع في متاهات حياة معقدة.

إنّه تسليم، ينحو بالضعفاء إلى تحميل الخالق ما لا قدرة لهم على تحمّله. وعلى العكس منهم، فالأقوياء يسلّمون عليه ويبتهجون به ولا يستسلمون له، فمثل هؤلاء يستشعرون قوتهم به... منه... وهم ليسوا بحاجة إلى أكثر مِنْ شكره... هذا إذا اعترفوا به.

لعنة إلهية

إذا كان الموت، يؤول إلى انطفاء أحاسيس الناس بالمطلق؛ فهذا يعني أنّ وجهه البغيض يخفي وجهاً لطيفاً، قد يريح بعضاً ممن لعنهم الله بلعنة العيش حسّاداً للآخرين، وهذا صنف ليس لديه متسع ليسعد بما عنده. فعين ذاته مصوّبة على أشياء غيره. يقضي جلّ عمره محبطاً مقهوراً على ما لم يحصل عليه، بخيلاً على نفسه، يحرم ذاته مِنْ أنْ تفرح بما عندها.

والعلّة هنا، لا تكمن في بشاعة هذه الصفة المتفق على أنها من رذائل حياتنا القصيرة، إنما في انعدام قدرة صاحب الصفة هذه على كبح إرادة التعذيب، تعذيب نفسه، فلا تكفّ ذاته عن جلد نفسها، والتفسير المعقول لما لا منطق لحصوله، هو أنّ الخالق أعاد خلق تلك الكائنات البشرية في منزلة توازي مرتبة الجشعين في الجحيم الأعلى لـ «دانتي» في «الكوميديا الإلهية». لعله يعاقبهم على إثمٍ اقترفوه في حياة سابقة.

تيه عصري

يتسم الإنسان المعاصر بالتّيه والضياع، لا لشيء... فقط لأنه ضاع في زحمة الأسئلة التي اختلقها بنفسه عن نفسه.

السؤال: أيمكن اعتبار صيرورة العود الأبدي، مرادفاً لديمومة المتاهة الأبدية؟!

«الإنسان الأعلى» تصويب نفسي

العلّة البنيوية الرائجة منذ فجر التاريخ، لا تزال هي هي، حيّة منذ أنْ أدْلَتْ الأديان الوثنية بدلوها واتحفتنا برأي يدعو إلى تصويب العلاقة المعوجّة بين الروح والجسد... ليأتي سقراط بعدها مكرّساً التنافر بين النفس الجسد، عِبْر نَفسٍ ملحمي، أعطاه أبعاداً فلسفية، رَست على قاعدة معيارية، شرنقت الفلسفة والفلاسفة قروناً طويلة بهمّ وحيد. كيف للإنسان أنْ يخلص روحه الطاهرة مِنْ دنس جسد رذيل؛ إلى أن جاء «نيتشه» وافتتح قارة مِن الأسئلة الماثلة أمامنا بقوة زوغان البصر عن رؤية ما علينا النظر فيه مِنْ بداهات، من شأن الغوص فيها أن ينقلنا إلى مسطح مِنَ الأسئلة المغايرة؛ بعد قرون مِنَ الطمس الذهني.

دعا «نيتشه» إلى إعادة نبش الذات، كي يعود الإنسان ليرى وجهه في مرآة ذاته؛ علّه يتصالح مع قرفه، فيتحقق الانسجام والتوازن التام في كائن جديد، هو المقصود ربما في مفهومه للإنسان الأعلى...

الرواية فيض موهبة وتجربة أيضاً

كتابة الرواية تحتاج إلى نباهة شخص فائق الحدس والحساسية، كما إلى خيال خصب، وذلك للارتحال من واقع الأمر إلى ما تذهب إليه الاسترسالات الافتراضية لبناء صور أبطال بأسلوب فنّي شيّق.

أما إذا كان الراوي لا يتمتّع بحسّ الفراسة لتقدير المآلات المحتملة في سلوك أشخاصه؛ وليس موهوباً بفك أحجية الالتباسات الحاصلة داخل الذات الإنسانية، فلن يتمكن مِنْ خلع أقنعة شخص غبي يدّعي الذكاء، ولا يستطيع فك أحجية الخبث عند شخص طيب. فإذا كان عاجزاً عن اكتناه مكنونات الضجر عند رجل سبعيني، ولا يمتلك جرأة الاعتراف بما قد يحصل عند اختلاء إمرأة جميلة بشاب وسيم ليس في غريزته أي خطب أو انحراف.

فإذا كان لا يتمتّع بأيٍّ من هذا، عليه ألا يُكابر ويتعدى على ما لا يمكن اعتباره حرفة أو مهنة، عليه أن يعود مِن حيث أتى، صحفياً مرموقاً في الإذاعة والتلفزيون، وإن أسعفه الحظ فقد ينجح في بعض جرائدنا الغراء.

هل شيوعية السوفيات من تشظيات التربية الأرثوذكسية؟

ألقتْ الأرثوذكسية بثقلها على كاهل الإنسان المؤمن في روسيا إلى حدّ أنْ دمغت وعيه ووجدانه بمجموعة من الإحكامات والضوابط الصارمة جداً؛ فاستحال المرء عندها مشذّباً من اعوجاجات، ليست هي كذلك في ما فطر عليه الإنسان من زلّات وأخطاء، تشكّل سمة من سمات وجوده الناقص أبداً.

لهذا، كانت المبالغة في التربية الأرثوذكسية التي سعت إلى إعادة المرء لجادة الصواب والاستقامة الأخلاقية، بمثابة قهر داخلي لإرغام المرء على خصام ذاته أو معاداة نفسه. فكان أنْ أدّت تلك الضغوط إلى انفجار، عَبَّر عن نفسه في الفن السوريالي الرائج هناك في بلاد الصقيع. هي كذلك، حتى وإن لم يرق للبعض، اعتبار شيوعية السوڤيات واحدة مِنْ شظاياها.

الجمال ومضة وهو قبيح إنْ ربض...!

أجمل امرأة هي العابرة إلى ما لا تريد سوى ارتشاف رحيق خاطف لترحل...، أمّا تلك الرابضة، ولا تريد المغادرة أبداً، فتفطس الأنفاس. أعرفتم كيف يولد الحب!! عفواً كيف يموت!!

بعد فوات الأوان

يفرح الإنسان العازب في مقتبل العمر بإحساسه، كونه سيجد نصفه الآخر في امرأة لم يرها أبداً. يفرح لكونه كائناً مؤجلاً ريثما يجد ضالته التي لن يراها طالما هو مبسوط بالانتقال مِنْ امرأة إلى أخرى، بحثاً عمن لن يجدها إلّا بعد أن استبدّ به الإرهاق والتعب، عندها فقط يلوذ إلى القبول بأي كان، لئلا تفوته تجربة زواج فاشل، لأنه اعتاد على الوحدة.

تعاضد الجماهير يحتاج إلى عدو

من يسعى إلى بناء دولة مدنية من نسيج مجتمع عشائري وطائفي، كمن يبني ناطحة سحاب بقشّ قندول.

ينعقد اجتماع الدولة بين فئات واسعة من الناس الواعين بفحوى التآلف والتوحّد في نطاق جغرافي له هوية، من المستحسن أنْ تكون متجذرة في لغة موحّدة وتاريخ مشترك، حتى يتواشج الحيز الوجداني بالمصلحة في أنْ يتعايشا معاً، بهدى العقل وعلى دفء عاطفة جياشة.

لكن المشكلة في اختلال التوازن بين العقلي والعاطفي، فما إن تحصل الجماهير الغفيرة على كرّاز قادر على تأجيج مشاعر الغضب عند القطعان التي تستعر تعصباً ضد مَنْ تريد افتراسه لتغذية تعصبها أكثر فأكثر، عندها تستكين إلى جهلها وتنام على حرير.

دعوة «أفلاطون» إلى جمهورية يحكمها فلاسفة، ضرب من ضروب مثاليته الواهمة، لأنّ مثلها لن يحصل على الأرض، إنما في سماء تصورنا لنهر من خمر لا يُسكر، هكذا هي الجماهير تلتهب تعصباً ضد عدو تخترعه إن لم تجده...!

نزعات غريبة

ثمّة آفات وعقد نفسية تجنح بالمرء إلى ارتكاب ما لا يقصد به أذية أحد مطلقاً، وإلّا كيف تفسّر ما حصل مع غيري البارحة، حينما امتعض زميلي من نفسه، لأنه مرّ على متسوّل طاعن في السن ولم يعطه مبلغاً مضاعفاً عما طمع باختلاسه بعد ساعة في مركز تجاري.

ليس هو بسارق ولا هو بكريم، لكنه فعل الأمرين معاً.

الري العاطفي أدعى...

يوم أودعني أبي وأمي سنة كاملة في مدرسة داخلية مخصصة للأيتام، كشرط قانوني لكي تتكفّل وزارة الشؤون الاجتماعية بكلفة أكلي وشربي ونومي وتعليمي في إحدى الرهبانيات المسيحية، كنت طفلاً لا يتعدى عمره ست سنوات، لا يحقّ لي رفض ما وجد فيه الأهل خير مصلحة لي عندما أكبر.

غير أن المشكلة ليست هنا، بل في مكان ضارب في عمق أحاسيس طفل تهشّم مِنْ داخله، ففي تلك الآونة لا يوجد معنى للحنان والعاطفة وكل ما يحتاجه الطفل أكثر مما يحتاج إلى أي شيء آخر في الدنيا. فكان أنْ لازمني بمؤدى هذه الطفولة المعذّبة إحساس بالوحدة وعدم الاكتراث، منذ أن ماتت أمي من دون أن أمتلىء منها، ومِن دون أن أرتوي بعاطفتها، لهذا تراني ما زلت وسأبقى أبحث عَنْ أمّ في عاطفة، أو عن عاطفة في أم. وذلك لأرتوي من ظمأي للدفء والحنان.

إنّ الشعور باللاشيئية وعدم الاكتراث، إحساس «كافكاوي» خبرته جيداً، وأعلم أنه هو الذي يشحن غضبي وسخطي على العالم كله. مِنْ دون داعٍ وجيه لذلك!!!

انفعالات خريفية

في مساء يوم خريفي ساطع، اشتممت وأنا أنظر إلى الغروب، طعم ضجيج حيوي في داخلي، لم أفكر بأسبابه، ولا يهمني إذا كان نتيجة خوفي من صقيع الشتاء، ولا أنا بوارد تصنيفه فيما إذا كان بشعاً أو جميلاً. المهمّ أنه أعاد إليّ توتري الذي فقدته في حمى الصيف وحرّه.

السعادة لحظات انتظار... والخوف كذلك

لعلها المرّة الخامسة أو السادسة، لا أدري، التي أعود بها وأكرّر بأن السعادة هي في مبدأ الانتظار... انتظار ما سيحصل... لكن ما إن يحصل ويتحقق ما كنت تنتظره، ستغرق في حزن شديد وتصاب بالإحباط، كمثل خيبة عاشقين تزوجا. خيبة أم خوت بعد الإنجاب... خيبة روائي انتظر بفارغ الصبر ردّة فعل القراء، على ما صار بعدها لا يهمه أبداً...

التفكير بالعواقب يفسد عليك لذة الفعل

إذا أردت ألا تفسد على نفسك الفرحة بما أنت فيه، عليك أنْ تترك نفسك على سجيتها، مِنْ دون أن تحتسب للضار والنافع، فاللذة في أنْ تغدو مأخوذاً مِنْ رأسك حتى أخمص قدميك في ممارسة الجنس من غير أن تفكر بعاقبة مَنْ... كيف..؟ ولماذا؟ كمثل مَن يلتهم طبق سمك مقلي، من دون أنْ يشغل باله بمنسوب الكوليسترول (Cholesterol) السيئ في دمه ولا بمستوى ارتفاع (Treglycerides)، ولا في ما يترتب على التمعن بمفاتن امرأة جميلة كتلك التي وجدت نفسك مأخوذاً بملامحها الجذابة، من دون أن تراعي مشاعر زوجها الغليظ.

أسطورة «جلجامش» مع الرقم (7)

منذ أنْ ولد الإنسان، أحاط نفسه بهالة مِن الأوهام، ليهرب مِنَ الاعتراف بالحقيقة، حقيقة وجوده ككائن بائس وضعيف، لا حكمة لوجوده أعلى من حكمة وجود الحشرات والحيوانات التي تدبّ على هذه الأرض.

لقد عاش الإنسان ولا يزال وهم عظمة، استمدها من قوته وسلطته على الكائنات الضعيفة، ولأنه غلب الفيلة والأسود، قرّر أنه خالد لن يموت، ومنذ أن قرّر «جلجامش» أن يقطع البحور السبعة والجبال السبعة للحصول على إكسير للحياة، فبدأت معه رحلتنا الطويلة إلى السموات السبع بكل مندرجاتها المشروطة بالتزامات دينية ومحرمات شرعية، وذلك من أجل أن نبعث أحياء من جديد في حياة لا تفنى أبداً.

وللسرّ جوره

لا أعلم الفحوى من الحفاظ على أي سرّ لأكثر من جيل أو جيلين، فالشيء المُحاط بسرية تامة، منذ مئات السنين ولا يزال، يجعلني أرتاب بحق مِنْ أمر حرّاسه والأمناء عليه. وللتذكير فقط، أسأل عن المغزى مِنْ إخفاء لغز انقضت عليه مدّة كافية ليتعفّن، ما لم ننفخ فيه الحياة عبر الخوض في تحليله، عبر إبداء الرأي والرأي المضاد.

غير أنّ الأسرار الميتافيزيقية كلها لا تخضع لهذا المبدأ، لأن

الإنسان أحاطها بهالة خوفه منها، فأبقاها بمنأى عن مبضع عقله... لئلا يمسّه كفر مَنْ تجرأ على سبر غور سرّ الأسرار.

نيتشه فعلها وأمات السرّ، فأذهلتنا جرأة اعترافه بجريمة ارتكبها، ليخلّص البشرية مِنْ جور تسلّطه على العالمين.

الشعر «ختيار» التعبير

لا يُكتب الشعر، إلّا بعد أن تختمر معارف الشخص الحسّاس وتتعتّق خبراته، لتفيض بعد طول مراس، شعراً يحتاج إلى حدس صوفي والى هدوء ما بعد العاصفة...، عاصفة التوتّر الذي ينبض في عروق الشباب بزخمٍ، لا ينسجم مع اللغة الشعرية المقتضبة، الكثيفة، البسيطة، الرمزية، أي بما قلّ ودلّ من كلمات مشذبة من الصخب الذي يضج في أجساد شباب لديهم فائض من الطاقة والحيوية لكي يعيشوا على ما لا يعيشه المسنّون القادرون، بطبيعة عجزهم، على التعبير بالكلمة لا بالجسد. وبنظري إنّ أبلغ لقب شاعري للشعر، «ختِيار» التعبير.

خواء ما بعد الولادة كخواء ما بعد التأليف!

نصيحتي إلى كل مهتمّ بالكتابة، ألّا يُفسد على نفسه متعة التعبير

عمّا يجول في خاطره من هواجس ورغبات، ليفصح عمّا يودّ قوله، بكتابة ما لا يجب إشهاره قبل إتمامه.

فأنْ تقرأ للآخرين ما أنت بصدد كتابته، وأن تعلن ما لم تنتهِ من تأليفه أو تدبيجه، وأن تبوح بما لم يحن أوان البوح به، فيه مضرّة، وذلك لبهتان توقعك، ولخفوت أمالك المعلقة على ما أنجزت، عندها تفسد على نفسك متعة انتظار الشيء الذي أمّلت النفس منه خيراً مبالغاً فيه.

لعلّ المكتوب كالسائل المنوي، ما أن يرى النور سيموت، لذا، عليك أنْ تقذفه على ورقة لكي يحبل كتاباً منمقاً، قبل أن تضجر من علكه، ولا ضير بعد ذلك أنْ يمزّقه القراء أو يشتمه النقّاد؛ المهمّ أنك أثمرت حملاً. ليست المتعة فيما سيولده، إنما المتعة في فعل الكتابة، أي في الوصال بذاته.

تعاسة «إدغار آلان بو» وإبداعه

بعد مئتي عام على وفاة الكاتب والشاعر الأميركي الموهوب «إدغار آلان بو» نستذكره بعد أنْ رحل، تاركاً لنا عبارة مقتضبة على ورقة وجدها أحدهم محشورة في جيبه بعناية شخص أقدم على الانتحار، لأنّه بحسب ما يقول: «مؤمن بأن الله أودعني عبقرية متوهجة، لكنها موهبة تمرّغت بالتعاسة». وبرأينا أن التعاسة تلك هي التي أمّدته بموهبة إبداع ما لن يبدعه طفل آخر، ما لم يتعرّض للانسلاخات إياها، بدءاً من

انفصال والده عن أمّه، مروراً بموت أمّه المفاجيء، وصولاً إلى إيداعه أحد بيوت التبنّي الباردة، هذه كلّها عوامل مساعدة لشحن عبقرية صبي حساس الحساسية نفسها ربما لصبي آخر لم يسعفه الحظ، لأنه يعيش ترفاً، يمنعه مِنْ أنْ يُبدع شعراً كصاحبنا.

صقور الكتابة الناقدة أو الناقمة لا فرق

ما أن تتجاوز سنّ الأحلام، وبعد أنْ تكون قد ضقت ذرعاً بالمطولات الفضفاضة، كتلك التي سرقت منك نصف عمرك، بانتظار أنْ تحصل على ما يفيد، أو أن تفوز بما يشبع نهمك الفضولي لمعرفة زبد «الخبرية» كلها... في السياسة والاجتماع والثقافة؛ عندها بالتأكيد ستضجر من الأحاديث العامة والتكرارات المملّة؛ فتجنح بميولك إلى تضاريس الكلام المسنّن بقوة، توجع أحياناً، أو تضحك، أو تحزن، أو تفرح أحياناً أخرى.

لم أتعرّف إلى «حازم صاغية»، ولا يهمني رأيه في السياسة أو الثقافة، ولا في ما يرتكبه من حماقات عندما يسكر أو يعشق، ولا ما إذا كان يحبّذ إطراءه ويبغض نقده، ما يهمني فقط جرأته المفرطة في فضح خبايانا المستورة داخل أحجية، ليست هي كذلك عند أمثاله القلائل ممن تقدح عيونهم شرراً كالصقر، ساعة يرى الفريسة طائراً يحلق «ككارل ماركس»، أو شيئاً يحبو «كنانسي عجرم»، والعكس صحيح إذا شئت.

عن «كافكا» ـ مرّة رابعة

إنّ ميزة «فرانز كافكا» الأدبية، عدا عن أنّه مبدع في تصوير الأشياء المحيطة بأبطال رواياته بدقّة متناهية، إذ لا يأتي على ذكرها بوصفها غرضاً مستقلاً عنّا، أو موجودة بذاتها.

براعته تكمن في ما أشاعه في نفوس قرائه مِنْ إحساس قوي بالحالة التي ليس لها مِنْ مرادف في قاموسنا اللغوي، القاصر عن التعبير عمّا يجول في داخلنا مِنْ تمزقات نفسية، رسمها لنا بريشة قلمه الساحر على نحو ما لم يقله مبدعون كثر ممن سبقوه... أو جاؤوا مِنْ بعده..

الفنّان وامرأته المحتملة

لذّة الجنس تتصل بالغياب وليس بالحضور، لهذا يطمع الفنانون والمبدعون بالحصول على قدر أكبر من المتع، في امتناعهم عن الزواج. يريدون أن يبقوا متوقدين بعشق محبوبة لن تتجسّم في امرأة حاضرة إلى يوم الدين. إنهم يحافظون على كونهم رجالاً محتملين لامرأة أجمل قد تحضر فجأة لتغمر حياتهم بغبطة مؤجلة دوماً. وهنا على المرأة أنْ تقرّر: إمّا أن تكون هي المؤجلة باحتمال أنْ...، أو تتزوّج به ليرتحل عنها إلى غيرها...!!.

نصيحة غبي

لحظة تستحوذ عليك عتمة اسوداد تشاؤم قاتم، ستشعر أن كل الأشياء هينة، قياساً إلى ما تقاسيه من إحساس موجع، لا يضاهي كربه إلّا الاستماع إلى غبي ينصحك بالخضار، لأنّ الألبان والأجبان هي مَنْ أضرّ معدتك، كما يبدو من الألم الواضح على محياك...!

جمال التناقضات

إن المغايرة والمشاكسة، ومَنْ يعمل لتكريس ما يتناقض مع سلوكه، مِنْ شأنه أنْ يضفي على المشهد ملمساً أخّاذاً، إذا ما تبدّل شيء في الصورة النمطية لأب قاسٍ، هذا إنْ لان، وجندي مقدام إنْ تراجع، وأم عطوف إنْ تعقّلت.

فالجمال فيما ترى مِنْ أُبهته، ما إنْ تستشعر سلطة قويّة في امرأة، ما إن يلفتك شخص نحيل وهو يقود قطعاناً غفيرة. ما إنْ تنشده بمطل إمرأة ناعمة وهي تقود طائرة حربية. ما إن تضحك على زلّة لسان جدّي مفرط في جديته، ما إنْ يرعبك هدوء مطبق قبيل حصول الواقعة. باختصار، لكي نفهم معنى الجمال، يجب أن لا أسترسل إلى أبعد مما تستجديه المرأة مِنْ عشيقها الصلب والقوي مِنْ وداعة، كي تضفي عليه جمالاً، وهو يذرف دمعة حنونة في حضنها الطري.

فيض الحرمان

ذات يوم وجدت نفسي متلهّفاً لمتابعة سيرة حياة المبدعين من الكتاب والشعراء والفنانين، بعد أن ترسخت لديّ قناعة راجحة بأن معظم هؤلاء، عانى في طفولته مِنْ حرمان عاطفي، وشحّ رعاية أبوية، أدى في الكبر إلى أنْ تتفجّر فيهم موهبة طافحة بالرغبة إلى أنْ يصرخوا بوجه مضطهديهم الكبار، هو ذا نحن، هوذا أنا لي معنىً وقيمة أكبر بكثير مما ظننته، يوم أهملتني، أو يوم تذمرت مِنْ وجودي، ضربتني، أو أودعتني أحد الملاجىء الباردة، تخليت عنّي أو تركتني تحت رحمة جفاء سلطة راهبات مدرسة داخلية.

فالمبدع يعلن سخطه على ما ارتكبه به أبواه، لأنّ المرء يعيش حياته كلها إزاء وجودهما الفاعل على نحوٍ، يؤثر في مشاعر القلّة إبداعاً أدبياً أو فنياً.

واحذروا، لأنه هو نفسه يولّد انحرافاً جرمياً لدى السواد الأعمّ.

تجربة لئيمة

مردّ الريبة إحساس فائق بالخذلان...!

تشاؤم غير مبرّر

في حياة المرء مفارقات كثيرة؛ أخطرها، إذّا ترسخت قناعة قاطعة لدى المرء بأنّ كل لذة راهنة اليوم، سيعقبها ألم مؤجل في الغد، بهذا الشعور تنغّص على نفسك الفرحة بما أنت فيه، باعتبار أنّ المستقبل يحمل إليك مرارات متكررة، لن تنتهي إلّا بالموت.

الإيمان ترياق شافٍ لعلة الخوف من الموت

بعد فوات الأوان، أدركت أن حياتي بائدة مهما فعلت. ذلك أن لا خلود إلّا لتلك المفارقة في حياة بشر، يكدون لئلا يموتوا، في حين أننا ميتون، لا محالة.

لهذا، على المتفلسفين أنْ يكفّوا عن زعزعة إيمان الناس بديانات، ستبقى ترياقاً شافياً لداء المصابين بعلّة الخوف مِنَ الموت.

عود على ذي بدء

ماذا بعد؟ لا شيء إضافياً على ما اجترّه الأجداد من سعادة وتعاسة، ولا على ما نعيشه من أتراح وأفراح، ولا على ما سيتكرّر لدى الأجيال المقبلة، وإنْ بحلّة جديدة، تحمل المغزى ذاته في سعي البشر الدائم إلى نسيان حقيقة موتهم المقدّر.

الأطفال يسألون والفيلسوف يجيب!

الإبداع أو ما يسميه البعض إبداعاً في الكتابة وفي غيرها هو بمثابة خلق عند شخص اصطفاه الله وأمدّه بقدرة العقل الفعّال على تبليغ رسالة غير سماوية... رسالة غير مقدّسة، تُستَشْعَر ولا تُوحى، تُستَخْلَص ولا تَهبُط، تتصل ولا تنزل، حتّى وإن احتاجت إلى التأمل إياه لشخص مفرط الحساسية حيال معاناة الناس ومأساتهم فيكتب... يرسم... يلّحن... يَنظُم، لكي يتطهّر مِن استشعاره آلام الآخرين. فيبوح لكي يُخرج مِنْ نفسه ما لا يجب أنْ يبقى في داخله. ولئلا يخنقه إحساسه بالذي لا يستشعره الناس في أنفسهم.

فببساطة، يتجرأ المبدع على الإدلاء بما كان يفكّر به وهو طفل؛ فالمبدع لا يتذكر تأملات طفولته، بل يتجرأ على إعادة طرح هواجس طفولته بعقل ناضج كفاية، لكي يسأل عن ماهية العلة في اهتياج رجل مهذب على امرأة مثيرة. وبالعكس؟ أو ليستوضح عمّا هي المشكلة في السؤال المتكرّر أبداً، عمن خلق خالق الخلق؟!!

هوذا «كافكا»

طفل يبكي في البراري... ولا مِنْ معين، يستجدي حضناً دافئاً من غير أن يحصل على غير تكوّر تحت صخرة عالقة فوق جرف تلّة باردة. يسمع ترّهات الكبار من غير أنْ يمتلك حقّ الاعتراض على ما لا يُسمح

له الخوض فيه. يتألم من غلاظتهم بحق أنفسهم وبحقّ الغير ويسكت على أمل أنْ يكون لأفعالهم مغزى لا يفهمه الصغار؛ يبتلع شكواه مِنْ قلّة حيلته على ما كان قد علّق عليه آمالاً واهية، يمتص غصّة علقت مِنْ جراء عتب على حماقة لم يرتكبها. وبذهن متوقد يراقب ما يدور من حوله... عله يلتقط شيئاً يكبح تحفّزه الدائم للوثب إلى قعر الهاوية، الهاوية التي غمرت وجوده، إحساساً مقيتاً باللاشيئية... باللاجدوى... باللامعنى... وأيضاً بما ينشغل به الناس ويهتمون لأمره.

هوذا كافكا، مكثّفاً وبتضاريس صورة كاريكاتورية.

المفكّر إداري فاشل

لا تعهد بمهمة إدارية إلى فيلسوف أو مفكّر، شاعر أو رسام، كيلا تُصاب بالخيبة من عبث هؤلاء المستهترين بتوضيب الأشياء وترتيبها.

فالإدارة يلزمها صبر أكبر وتفكير أقل؛ تحتاج إلى خنوع وقنوط، لا يتوافر عند من يشتعل ذهنه بالتأمّل في علّة ترتيب الأشياء، فرتابة التكرار في الأعمال اليومية دأب العاطلين عن التفكير، إزاء الفلاسفة والعاطلين عن العمل!!

منسية «انطوان تشيخوف»

ساق الأديب الروسي «انطوان تشيخوف» نصائح عدّة إلى كل من

اجتاحت روحه غمامة سوداء... إلّا أنه نسي أن يضيف نصيحة أهمّ للخروج من كدر الحالة تلك.

إذا كنت لا تفقه علّة بؤسك، لا تيأس وتذكر أن الفصول متعاقبة. فغداً سينقضي صقيع الشتاء وتزهر الحياة بربيع دافيء...!

يوميات «كافكا» ولذّة التعرية

وأنت تقرأ يوميات «فرانز كافكا»، ينتابك إحساس شديد التعقيد. تلتذّ بدّقة وصفه خبايا الأشخاص، ممن صادفوه وعاصروه في أمكنة وأزمنة، صارت مقترنة بأدبه؛ وتفرح بنفاذ نظرته الثاقبة إلى كل ما يشاهده ويقرأه. لدى «كافكا» مقدرة فائقة على أن يتحول في لحظة خاطفة إلى سهم نافذ في كل الأشياء. فكائناته ليست أحجية. والحقيقة ليست لغزاً، والمجهول ليس سرّاً. فأشياء هذا العالم كله موجودة لنا ومنْ أجلنا. لكي نمارس هوايتنا في تعرية محتجباتها.

أدب «كافكا» يوفّر لنا متعة جميلة. ذلك أن متعة التلصص على عري الآخرين، توازي خجل الذات من عريها أمام الآخرين.

اختبار سيئ لغاية جيدة

من أجل حلّ المعضلة «الانتروبولوجية» العالقة لدى علماء

الاجتماع، ممن قضى جلّ وقته في البحث عن مستوى الفرق بين الفطري والمكتسب عند كلا الجنسين الذكور والإناث، أقترح عليه توصية غير أخلاقية، مِنَ النوع الذي قد يثير حفيظة جمعيات حقوق الطفل.

وهل من ضير في التضحية بعاطفة ثلة صغيرة من حديثي الولادة كالذين يموتون في حروبنا العبثية، من أجل غاية إنسانية سامية.

ما رأيكم برمي مجموعة مِنَ البنين والبنات في جزيرة نائية عن مسموحاتنا وممنوعاتنا التربوية، لا يُعهد فيها إلى أحد، مع الحرص على أن يعيشوا بطريقة ما حتّى يكبروا. يُصار بعدها إلى الإتيان بهم لاختبار مدى إنوثة البنت ومحتوى ذكورية الصبي. وذلك لفهم ولمرّة أخيرة مدى تأثير تدجيناتنا الاجتماعية على النشء.

«كافكا» في صورة غير فوتوغرافية

قبل أن أبدأ بقراءة يوميات «فرانز كافكا» وجدت نفسي مستغرقاً في تأمل صورته على الغلاف الخارجي للكتاب، نظرات حادة وطافحة بأسى لا متناهٍ، أذنان أكبر من المألوف مما جعلهما لا تنسجمان أبداً مع وجهه الصغير كوجه طفل ساخط على قدر وجوده في عالم بائس، ملامح شخص غير آبه بأشيائنا، شاب يراقب من خلف وجهه وجوهنا الضاحكة والباكية على حدٍّ سواء. ويبدو أنّ سوء الطالع رماه في عالم غير عالمه، حتّى وإن بدا لك استياءه واضحاً من تقدير المرأة لوجوه

الأغبياء، يبقى لك السؤال عمّا يُضحك هذا الشخص؟ أو كيف تغدو صورته عندما يبكي؟

فوجهه يجمع كلا الحالتين في ملمح عصي على فكّ انفعالاته التي توحّدت، لتصير هي هو... وهو هي...!

لغز «الميتافيزيقيا»

بعدما صار تعريف الفلسفة أشدّ التباساً من فكّ أحجية اللغز الميتافيزيقي الأوّل...! تحوّل السؤال عمّن خلق العالم إلى إجابة عن سرّ البشر الموسومين برغبة جامحة للامتلاء بإجابات طافحة، فإن لم يجدوها عليهم أنْ يخترعوها. وذلك كي يموتوا بسلام... عفواً كي يعيشوا بأمان.

تقلبات مزاج

بعد أنْ مضى عليّ أسبوع قاس من المعاناة، وأنا غارق في كآبة متربصة لها مخالب نمر، أرغمت نفسي على الجلوس إلى الطاولة، علّني أكتب شيئاً يبدّل مِنْ مزاجي المؤرّق بهموم، ليس لها تعريف في قاموس حياتنا الاجتماعية...

وبالفعل، تبدّلت حالتي بعدما رحت أهوم شغفاً بمؤخرة المرأة تلك التي تمرّ على التوّ مِنْ أمام نافذتي.

تبجّح ثقافي

يستجدي بعض أدعياء الكتابة الزجلية، ممّن يضجّ رأسه بالشهرة والنجومية، «شعوراً بالوحدة». هكذا وببساطة، يريدون أنْ يتمثلوا بالعظماء، لمجرّد سماعهم أنّ المبدعين ينهلون فيسترشدون بمعاناة وحدتهم، رسماً، أدباً، أو موسيقى، لا تُضاهى.

وهل مِنْ داع للتذكير بأنّ الوحدة تلك، نتيجة وليست سبباً، لشيء أهم وأعمق مِنْ ترّهات المتبجحين هؤلاء المنتشرين بكثرة في سوق ثقافتنا السائدة.

الغرابة تُحيي العشق والإلفة تميته

يولد «التابو» بين الأشقاء، نتيجة تواشج اهتمامات أفراد، لا كينونة لوجودهم إلّا في نطاق الأسرة.

إن علاقة القربى تؤدي إلى إلفة مملّة من النوع الذي يعتاد فيه الشخص على ما لا يهمّ إنْ أحبّه أو كرهه؛ لهذا فالغريب منفّر لأنه يستنفر فينا تحفّزات جديدة لخوض غمار مغامرة شيّقة، لا وجه للمقارنة فيها مع رتابة الارتكان إلى مشاهدة وجوه الأقرباء أنفسهم، كل يوم، وحفظ ردّة أفعالهم ذاتها، مع كل حدث.

بهذا المعنى، يموت الشغف بين الزوجين، بعد أنْ يعتادا على

بعضيهما، فتذّب الرتابة الناجمة عن علاقة أرادوها مشتعلة على الدوام. فتساكنوا من أجل إدامتها... ومنْ أجل إدامتها، انطفأت...

وخزة «كافكاوية»

يعتبر «كافكا»! «إذا لم يوقظنا الكتاب الذي نقرؤه بلكمة في الرأس، لماذا نقرأ الكتاب إذاً؟».

يتكلم هو عنْ الرؤوس التي تستشعر؛ فبعض ممن يحمل فوق كتفيه جمجمة، خلق لدينا التباساً في الشبه...!

«سيوران» والوجه الآخر للحقيقة

يجنح المرء إلى التعقّل عندما تذوي قوته وتخفت حيويته. إنّها واحدة من معادلات «سيوران» المفاجئة، ساقها لتفسير علّة التقهقر عند كبار السن نحو التروي والحكمة. فإقدام الشباب على البطش والهيمنة هو من فائض قوتهم الخلّاقة، وذلك للتعبير عن نزوع المرء الفطري بغية إرغام الآخرين وإخضاعهم لسلطته. على هذه القاعدة بنى «سيوران» تفسيره السياسي مِنْ «أنّ فرنسا لم تستطع الذهاب في اتجاه الديموقراطية، إلّا حين ترهلت ولم يعد لها من أمل في الهيمنة، وهذا ما جعلها تستعد إلى أن تصبح محترمة وحكيمة».

وبذلك، يستنبش سيوران الحقائق من معاكسته للمسيو دو الدارج. فهو إذاً، مشاكس مِنْ رأسه حتى أخمص قدميه، ينحو باتجاه مباغتة قارئه بخلاصات مقصيّة عن البال، في التاريخ والسياسة والأخلاق. كأن تقول: إنّ للاستبداد وجهاً مشرقاً، تمقته لأنك لستَ أنت المستبدّ، وقسْ على ذلك المعايير المعتمدة كبداهات، ليست هي كذلك في قاموس عقله النيتشوي.

حكمة كبار السن في أوروبا إزاء تهور الشباب في آسيا

لا نعزو سبب تخلّف الأمم الفقيرة إلى كثافة الإنجاب في مجتمع تأكّدت فيه العلاقة بين العاهتين (الفقر والإنجاب) إلا أننا نردّ إلى الإنجاب سبباً أهم، يتعلّق بفتوّة المولودين في مجتمع صار يعجّ بطاقة الشباب وتهوراتهم، فإذا ما صحّ قول سيوران هذا «إنّ مَن لم يُفتتن بكل أنواع التطرّف، قبل بلوغ الثلاثين هو مثار سؤال، أُعجب به أم احتقره؟ اعتبره قديساً أمّ جيفة؟ أم أنّ قدراته البيولوجية خانته؟ فاختار لنفسه موقعاً فوق الزمن أو تحته، لكنه مريب لمجرّد أنّه خال من إرادة التحطيم، خال من الرغبة فيه... فالتسامح وظيفة عاطفية مطفأة، ثمرة لا توازن ناتج لا من إفراط في الطاقة بل من نقصانها، لذلك فهو لا يجذب الشباب».

لذا، يمكن القول: إنّ التطرف قوي في آسيا، لا في أوروبا، بسبب ما ينحو إليه فقر مجتمعات، شبابها أكثر من شيوخها، وبهذا المعنى فالحكمة في أوروبا ناجمة عن اختلال في التوازن السكاني لصالح كبار السنّ!

رواج التنجيم من غباء الناس

البارحة بالذات ومع مطلع السنة الجديدة، أدركت كم هو سهل أنْ تصير مستشرفاً لتوقعات القدر وأحواله؛ ولا أقول نبياً بين القطعان، عندما وجدت نفسي هكذا مخبولاً أمام انبهار الناس بتنبؤات أحد المنجمين الأغبياء الذين قُدّر لهم الثرثرة من على شاشة التلفاز بترهات تبعث على التقيؤ، لا مِنْ فرط إمعانه في دجل يستخفّ بمنطق العقل، بل في انطلاء الدجل على المشدوهين إعجاباً بكلام أحمق وسمج.

تحزّب مريب

يرتاب «سيوران» أثناء قراءة أحوال البشر، بأمر كل شخص تخطى سنّ الثلاثين وبقي على عناده متطرفاً في الرفض والتحطيم والتمرّد؛ وإذا ما بقي على انحيازه إلى «لاءات» تغوي المراهقين وكل من لديه فائض طاقة بيولوجية، ليست متوافرة أبداً عند كل رجل يميل بطبيعته

إلى التسامح والغفران، ما إن يهبط منسوب حيويته وينخفض زخم شبابه.

هذا يعني أن في الأمر داعياً، نستخلصه استنتاجاً، في قياس هذا الأمر على مَنْ بقي شيوعياً بعد سنّ الأربعين، بما يجعلنا نتّهم صنفاً مِنْهم بالدجل، أمّا الصنف الآخر، فلديه بالتأكيد تشوّه خلقي، أو بالأحرى خطب ما في تكوينه البيولوجي.

قمع الأنا تهذيب أخلاقي

هل تعاني الدابة من الكآبة الوجودية؟ سؤال غريب والإجابة عنه أغرب بالتأكيد.

ماذا لو افترضنا أننا نستطيع العيش على هوى غرائزنا الفطرية من دون كابح ولا قيد؟

لكنّا بحلّ من الضغوطات التي يمارسها المرء على نفسه. ولكنت أنا مرتاح الآن مِنْ غواية إمرأة تمارس على الرجال هوايتها المفضّلة في التلذّذ باستثارة رغبتهم بها، إن الأخلاق أصل الداء وفصله...!

بعيداً عن الخطأ والصواب

عندما يغيظني غبي ويستفزّني أحمق، ألوذ بالصمت، حتى أكاد

أنْ أختنق حسداً لـ «هتلر» بالذات. لا تسألني عن السبب إذا كان ليس بمستطاعي إسكات نصف السياسيين، وليس بمقدوري الانقضاض على القطعان الغفيرة، مِنْ باب فشّة الخلق.

فيلسوف وديكتاتور

شخصان اثنان تسنّى لهما أن يمارسا على البشرية أقصى ما لديهما من جموح غرائزي. نيتشه في الفلسفة وهتلر في السياسية. مع فارق أن ضحايا الأوّل تفوق بديمومتها مجازر الثاني. فالمرارة من إماتة الله يضاهي موت الملايين في الحرب العالمية الثانية.

سؤال حول اشتراكية «هتلر»

ستظلّ سيرة حياة «هتلر» مثار تكهنات وجدل دائمين. قد لا تنتهي أبداً عند رأي جازم حول أسباب اقتراف شخص واحد لجرائم مليونية. لكن باستطاعتنا أنْ نستخلص من مسيرته المليئة بالمفاجآت، ثابتاً وحيداً، لا يرقى إليه الشكّ أبداً؛ ألا وهو كرهه الشديد لليهود.

السؤال، إذا كان عداؤه المفرط لهذه الديانة قد شكل بوصلة أدائه أو حَركته السياسية، هل كان استبدل اشتراكيته الوطنية المزعومة باشتراكية «ماركس»، فيما لو كان الأخير متحدّراً من عائلة غير يهودية؟!!

شكسبير فيلسوفاً

إذا ما أردنا أنْ نستوضح مدى إيمان «شكسبير» بالديانات السماوية، عبر ما صرّح به مواربة في شعره، يكفي أنْ نتوقف عندما قاله في أولى سونيتاته (أنانية الحبيب): «لأنّ الأنضج لا بدّ مع الزمن أنْ يذبل، فإنّ وريثه اليافع قد يحفظ ذكراه حياً»... وأيضاً قال في (سونيت رقم (12) سرّ البقاء): «لا شيء يمكن أنْ يتحصّن ضد منجل الزمن بشيء سوى النسل».

فمن هذا نتبين الأزمة الوجودية لشاعر عانى من هذه اللعنة التي تصيب عادة المشككين والريبيين، كما أصحاب الأحاسيس التّواقة للخلاص من جحيم الأكاذيب المُطبقة على البشرية جمعاء.

لكل زمنٍ «هتلره»

لعلّ «هتلر» من الساسة النادرين الذي أسعفهم الحظ أو القدر للسيطرة على الحكم، كي يجعل الحياة جحيماً، ويحولها على مقاس نظرته للحقّ والباطل، للخير والشرّ، للصح والخطأ، وأيضاً لمن عليه أنْ يحيا... ومَنْ يجب أنْ يموت...

وهذا لا يعود إلى حكمته أو تخطيطه العقلاني الفذّ، إنما بسبب انعدام التعقل عنده، أطاح بالمنافس وبكل من خالفه الرأي، لينبري وحده

رجل الخلاص المطلق، بعثه الله منّة للبشرية لتصويب اعوجاجات العالم، عبر تنظيف وطنه المانيا أولاً من الأعداء والمُغرضين.

مثل هؤلاء المجانين قلّة، يستحوذون على غرائز الجماهير المتدافعة تلهفاً للتبارك بنعمة نظراته النارية المشعّة بيقين صوابه. قوّة الزعيم هي من دفق الغريزة المتبادلة والمنفعلة بينه... وبينهم... مثل هؤلاء يدمغون التاريخ بكوارث مرعبة، لا تستدركها الشعوب إلّا بعد فوات الأوان...

العود الأبدي

إذا ما أردنا التمعّن جيداً في قيمة ما نفعله، قد لا نتأخّر لحظة عن رمي محفوظاتنا ومشاريعنا كلها في القمامة. لأنّ الآتي لا يبشّر بأكثر من التكرار.. تكرار الرتابة والبؤس واليأس نفسه... عود على ذي بدء.

مصائب السياسة من الحقائق المطلقة

في السياسة ثمّة صنفان، يبدوان غير متآلفين بالمطلق. اتجاه ينحو نحو براغماتية مُسرفة في اللاأخلاقية على عكس الاتجاه الآخر المفرط في أخلاقيته؛ يتمثل الاتجاه الأول في زعيم لا يبغي إلّا الكسب والسيطرة، وبأي ثمن، أما الاتجاه الثاني فيتجسّد في قائد حالم، آمَنَ بأنّه منذور لخلاص البشرية، عبر القضاء على الفساد واجتثاث الرذيلة

من جذورها؛ وهذا النوع أخطر بكثير على ما فيه مِنْ نوايا طيبة.

ولعل المصيبة تكمن في النوايا تلك، حيث لا يشعر بالذنب على فداحة ارتكابه لجريمة هينة بنظره لأنها من أجل هدف أسمى، أي لإقامة جنّة الله على الأرض؛ وهذا لا يُقاس أبداً مع سّر من يستجدي مكسباً آنياً، يبقى هو على ما فيه من خسّة، ينتمي إلى هذا الواقع المرير...!

رهبة الوجود وجماله

إذا كان الجمال ماثلاً عند الإنسان بالقياس الدائم والإحالة الجدلية بين المتناقضات، فضيق المرء ومحدوديته يكتنهان سرّ انشراحه في رحابة هذا الكون اللامحدود بالمطلق. ولعلّ جمال الوجود يشكّل الوجه الآخر لأزمة وجود الإنسان المنتهي، في عالمٍ لامتناهٍ.

ولربما الرهبة مِنْ خلاء هذا الفضاء الشاسع، جعلت البشر غير مهتمين وغير آبهين بأي شيء، عدا الانتماء إلى دفء الأهل والأقارب، فعزاء الضعفاء إذاً، هو البكاء على صدور أمهاتهم.

نعيم الفقراء

هل أنّ شقاء الفقر يضاهي متعة اللامسؤولية عند مَنْ لا يملك ما يخسره؟ أو بالأحرى، عند من لا يخاف ولا يقلق ولا هو بحاجة أصلاً

إلى أنْ يحتسب ليل نهار خسارة مبلغ مالي من هنا، أو صفقة تجارية من هناك؟

سؤال عبثي ربما، لكنه ليس أكثر عبثية من سخرية هذا الاستنتاج البائس، إذا ما اكتشفنا أنّ للفقراء نعيمهم أيضاً!

وصفة علاج مِنْ داء وجودي

يا أيها البؤساء، إليكم هذه الوصفة الشافية لاعتلال الحال، إذا ما كانت النفس مؤرقة بهمّ وجودي، عليها الانتماء بالارتماء في أحضان مَنْ تستشعر معهم دفء السير نحو ما لا يعرفون إليه سبيلاً، وإذا كانت غير راضية عن نفسها، عليها أن تُعيد النظر بطموحها، لكي تبتهج نشوةً بالسكر الغرائزي مع القطعان الغفيرة. أما إذا كانت مُصابة بداء الفرادة الناجمة عن معرفة ما لا يعرفه الآخرون، عليها أنْ تلوذ بالصمت، ريثما يأتي اليها الفرج بعد مئة سنة أو مئتين، فالآتي أهون، ولا ضير أثناء ذلك من أن تحتفي سراً بقدرتها على فضّ بكارة عقول يابسة، لم ولن تُستعمل إلا للمناطحة.

ذلك أنّ الانتحار حلّ باهت، ليس فيه ابتكار.

الشرّ كمون إنساني

لدي ميول جرمية، منذ أنْ ابتلعت غصّة ملعونة، كَمنَتْ في

داخلي، ما إن رأيت رجلاً قوياً، ينقض بالضرب على طفل ضعيف بدون رحمة. فالهيئة التي أظهر بها على الملأ، أو التي يجب عليّ أنْ ألبسها أمام الناس، تمنعني من تحطيم جمجمة شخص وقح، يهمّ في التعدي على آخر، لا ذنب له سوى أنه استفزّ ساديته المفرطة.

ولأنّ الضعفاء هم وحدهم مَنْ يستثير لعاب هذا الصنف المريض، قلّة نَجَتْ مِنْ هذا المصاب الذي يحيل الضحية إلى جلّاد، وبالعكس، بما يجعل من تبادل أدوار انكساراتنا المتتالية، سمة للاجتماع البشري بأكمله.

وهذه قاعدة حيّة في تفسير الحراك الاجتماعي، لم يأتِ على ذكرها «ابن خلدون» لأنه مات، قبل أنْ يقرأ فلسفات «نيتشه وشوبنهور وسيوران».

رحمة الخالق أكبر

ما معنى الخطيئة الأصلية؟

وهل من خطيئة ارتكبها الإنسان الأول المترف كان في نعيم جنّة، هي كذلك جنّة لأننا نفترض خلّوها من الاختبارات الصعبة والإغواءات المريرة؟ من القهر والجوع والعطش؟ هي كذلك لأنها مكان للراحة والانبساط، أو قلْ ليست مكاناً بل هي مرتع للأهواء والرغبات والغرائز المكبوتة هنا في الدنيا، مِنْ أجل أن نفوز بها هناك في فضاء رغيد بالخيرات والإشباعات والامتلاءات السعيدة.

لقد أخرج الله خليقته من رغيد الحياة الأبدية إلى شقاء الدنيا وعذاباتها، عقاباً لها على ما اقترفه الجدّ الأول وليس الأبناء.

القانون الوضعي يسقط المترتبات الجرمية عن المرتكب بعد مرور عشر سنوات، وأيضاً لا يحمل تبعات جرم الأب للإبن. لذلك أبشِر، فالقانون الإلهي أرحم بكثير مِنْ فذلكات الإنسان.

كيف رسم «فان غوغ» سخطه في لوحة

ما مِنْ صورة تختزن غضباً وسخطاً كالذي شعّ من عيون مبدع، رسم نفسه في «بورتريه»، أراد به اختزال نظرته الغاضبة والمتألمة من وجوده في عالم، ليس فيه من عدل ولا رحمة.

إن حساسيته المفرطة حيال هذه الحقائق، كشفت عنه الغطاء الذي يلتحف بدفئه السواد الأعظم مِنَ البشر، فصار وحيداً يرتجف مِنْ صقيع معرفته بالذي لا يعرفه الآخرون.

هوذا «فان غوغ» يصرّح لنا في رسمه، عن علّة انتحاره، بطريقة فذّة تعجز عنها المطولات الكتابية، وذلك تعبيراً عما أراد قوله لنا في صورة موجزة، وبصورة مكثّفة.

هل لك أن تتخيل ملمحاً للشقاء وقد تجسّد إنساناً غاضباً؟!

أيستجيب التاريخ إلى هوى الطغاة؟

إذا تأمّلت في المقولة اليسارية الساذجة هذه: «إن الجماهير تصنع التاريخ وهي من تحرّكه أيضاً». قد تجد نفسك مستغرقاً في استعادة محطات تاريخية واضحة وضوح كرهك لأباطرة وطغاة كثيرين، كـ «نيرون وهلتر وستالين» وغيرهم ممن دمغت أسماؤهم مراحل تاريخية، تحفّزت قُدُماً بفعل الفجوات الدموية التي صنعها هؤلاء وأشباههم الصغار الممسوخون عنهم، وكل مَنْ لا يزال يعتاش اليوم على رفضه الشورى للقائم، أياً كان هو، خيراً أو شراً.

الإيمان في ألّا تنام شبعان وجارك جوعان

تأمّل معي «الخضّات» أو الصدمات التي يتعرض لها التاريخ؛ ستخلص بالتأكيد إلى استنتاج مفاده، إنّ من قام بالثورات والانقلابات الفجائية من الأمم الغابرة والدول المنقرضة، هم أشخاص حالمون، شمّروا عَنْ سواعدهم ساعة الشدّة، وحزموا أمرهم، عازمين على أن ينتصروا لظنّهم بالعدل والمساواة، وبالحقّ والخير ضد الشرّ والظلم، هم فئة نقيّة وصادقة بمقدار فقر مداركها، الواضح وضوح عجز أصحابها عَنْ التمييز بين أسباب الأحلام وعلّة الواقع.

فالفقراء الآتون من الأرياف البعيدة، يحملون حنقاً على فقرهم

ونقمة على عوزهم بما يكفي ليصبّوا جام غضبهم على المدن المُترعة بترف أهلها غير المهتمين. وهذه علّة مدنية. فالنقمة تتعاظم حينما يرى المتشرد بيوتاً متخمة بالترف، وهو جوعان.

السؤال: هل أن الشيوعية أنموذج للمأساة المتمثلة بغلاظة أو فظاظة «ستالين» الفلاح الجورجي في مدينة «موسكو» وفي إقامته في قصر «الكرملين» بطابعه الأرستقراطي.

منظار وجودي

مَنْ ينظر إلى الأشياء من موضع أرفع مِنْ انهماكات الناس وانشغالاتهم، سيُصاب حتماً بالخيبة من استنتاج وجودي، لا يقدر عليه المنغمسون في هموم يومية، وذلك لكي يحصّلوا مكاسب آنية مِنْ شأنها أن تلهيهم فتعميهم عن حقيقة وجودهم البائد في عالم منقضٍ. فانتظار الموظف لراتبه في نهاية كل شهر. وتصبّر الأم من أجل إنجاب طفلها، بعد تسعة شهور، ومواعدة فتاة واللقاء بحبيب، وامتلاك شقة أو تأليف كتاب، ورعاية ابن أو إدارة مؤسسة، وتبوؤ منصب وزاري أو الحصول على نجومية، وتقديرك بالإطراءات أو تعرّضك للذمّ، أصبت نجاحاً في هذا أو أخفقت في ذاك، هذه كلها إلهاءات، تنتمي إلى اعتبارات عالم المنخرطين في واقع، لَنْ يدوم، وسيتنهي بك هباءً منثوراً، أو سراباً أمام عظمة تكرار الصيرورة الأبدية.

«جبران خليل جبران» ليس أكثر من نثرات نيتشوية بالعربية

عندما تقرأ كتابات «جبران خليل جبران»، تشعر بنسمات نيتشوية تلفح عقلك؛ بما يؤكد استنتاج الكثير مِنَ الباحثين الذين تتبعوا الكوامِنَ التأثُّرية لجبران بالفيلسوف الألماني «نيتشه»؛ لكن هذا لا ينفي أبداً إبداع «جبران» الذي أعاد تفريغ أو كتابة مقروئه النيتشوي بقالب خاص، ذي نكهة شعبية، استساغ طعمها المراهقون وأشباههم ممن تحجّرت عقولهم، ليبقى واحدهم عقائدياً حالماً، على الرغم من تجاوزه سنّ الخمسين.

ولأنّ الإبداع لا يقتصر على الاستكشافات الجديدة، فالتوليف هو أيضاً فنّ إبداعي لتدجين الأفكار الغربية كما الجديدة، لتصير كما لو أنّها منّا ولنا...، ولا بأس إنْ صبّت في ترويج ما لم يكن رائجاً في ثقافتنا العربية.

حكمة الأديان كلها

«لا تقتل، لا تسرق، لا تزنِ» وذلك كيلا تصاب بالعار، لا من فعل الارتكاب، إنما من فداحة المذلّة التي قد تعرّض فيها شخصك إلى إحساس بغيض، يفوق بشاعة أي عقاب، هيّن هو، قياساً إلى ما قد تشعر به من شفقه مقيتة في عيون الشهود والمتفرّجين.

لعلّ الحكمة القديمة المتكرّرة منذ بوذا... حتى اليوم، ترمي إلى تنبيه الأتباع مِنَ الأذى الذي قد يسببونه لأنفسهم، في حال لم يرتدعوا كبحاً لغرائزهم المتربصة في وداعة الناس أجمعين.

لكل عمر درسه

لن أعفي نفسي مِنْ تحمّل المسؤولية في ما تعرّضت له البارحة.. وهو لم يكن درساً، فبعد سنّ الأربعين، كل مهانة هي بمثابة جلد للذات، عقاباً على ما لم تتعلّمه، قبل ذلك...!

لذّة مهمّش

من يصل إلى مرتبة اجتماعية مرموقة، سيُحرم من لذّة «الصعلكة»، أضف إلى أنه لن يستطيع التحرّش بالفتيات الجميلات، بعد أنْ صيرنه، هنّ قبل الآخرين، صورة لما يبغضنه في تصرفات الرجل الموقّر... ولما يرغبنه... في الشبّان المتهورين.

مطرقة «نيتشه» وفأس «سيوران»

عندما يقول «إميل» لسيوران: «لا شيء يبعث على الغمّ أكثر من واجب التصدي للقاع البدائي ولنداء الأصول (في الغرائز

والرغبات)... قد يبلغ أحدنا أعلى الدرجات لكنه يظل سجين طبيعته، حبيس سقوطه الأصلي»... فبهذا الكلام، يعيد سيوران تذكيرنا بأصله المسيحي وفصله النيتشويّ، ذلك أن السقوط الأصلي للإنسان عبر الخطيئة الأصلية لجد البشرية، راسخ بما لا يمكن انتزاعه لمجرد أنْ نؤمَن بأنها خطيئة، فطبيعة البشر موسومة بذاك الذي دعانا الله إلى محاربته فينا، وبقوّة تضاهي قوّة رسوخه في قاع ماهيتنا الشريرة، فالخير لا ينتصر، إلّا بعد أنْ تذوي حيويتنا ويضعف شغفنا الذي يحثنا هو على ارتكاب فظاعات، إن دلّت فستدل على أننا ما زلنا شباباً متوقدين بالكره والانتقام والحسد.

لعلّ ما نسوقه في هذا التفسير، يتسق أكثر مع خلاصات «سيوران» القائمة، بعد أن استخرج الوجه القبيح مَنْ أفعالنا الحسنة، البشاعة من الجمال، كما الشرّ من الخير، مثلما استنبش ما لا يُحتسب وجوده أبداً من طغيان النقيض.

هو فيلسوف المباغتة إذاً، فباح لنا بالذي تمنّع «نيتشه» عن قوله، بنتيجة المفعول الرجعي للمترسّخ في قاع الأخير من مسيحية، أجهز «سيوران» عليها بضربة فأس قاطعة، سنّها على مدى سنوات مقته للشيوعية وكرهه لتبجحات الرأسمالية الليبرالية.

أحلام مبدّدة

مَنْ يقرأ «سيوران» يستشعر مدى الخيبة الناجمة عن إيمان شخص

بأحلام جميلة؛ ما إنْ استكشف ماهيتها الواهية، حتى راح يبدّدها عبر تقطيع أوصال نفسه، لكن بغضب ونقمة عارمة، هذه المرّة.

«الفردانية» أصحّ

يُشاع أن الاشتراكية تدعو إلى تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، بينما تُعلي الرأسمالية من شأن الحرية الفردانية على حساب وئام الجماعة وعصبيتها.

إنها لقاعدة رائجة تُخفي تناقضاً فاضحاً، إذا ما أمعنا النظر في ما آلت إليه اشتراكية «هتلر» واشتراكية «ستالين» أيضاً؛ فالجماعة هناك استُغلت على نحو فظيع؛ فتمّ النفاذ من أماني الفقراء وأحلامهم بالتكاتف والوئام، ليُتخذ منها وسيلة لخدمة فرد واحد أحد، أمره مُطاع في كل شاردة وواردة. بهذا، يمكن القول: إنّ الرأسمالية على ما فيها مِنْ علّات وويلات تمثل مصلحة أفراد الجماعة، بما لا يتماثل مع مصلحة فرد متحكِّم بمصير الجماعة ومشيئتها، هوذا الديكتاتور الذي نذر نفسه لمحاربة شرّ «الفردانية»، عبر إخضاع أفراد الجماعة بالجملة لشرّه هو.

الانتقام من الطفولة الخائبة!

الطغاة ليسوا متشابهين، فالكوارث الناجمة عن جنون الرؤوس

الحامية، تفوح منها رائحة قهر عتيق أو عطش للثأر، وفي بعضها سخط ونقمة على ما تعرّض له الطاغية، يوم كان طفلاً.

قل لي كم من القرارات المتهورة التي اتخذها «هتلر»، أقل لك كم مِنْ عثرة، وكم مِنْ خيبة أثقلت طفولته بالحاجة إلى الانتقام من العالم كله.

ما لا يُستعمل سيُصاب بالضمور

عليك أن تحذر أذا ما رأيت جيشاً يُبنى للهجوم أو للدفاع، أو لشنّ حربٍ استباقية، كل هذا لا يهمّ، لأنّه مِنْ دواعي الاعتبارات السياسية البسيطة، قياساً إلى ما ستصيره الأمور بمؤدى حاجة الجيوش لممارسة وظيفتها الوجودية، وذلك بالحرب، فبالحرب وحدها تعيش الجيوش... وبالحرب وحدها تستمر... وإن لم تجد عدواً خارجياً لحروبها، تعوّذ بالشيطان، لأنها ستبحث بالتأكيد عمّا في داخل الأوطان من أعداء، ليسوا كذلك إلّا لإشباع جوعها الدائم للحرب والبطش...!

الطاغية

إذا كان التاريخ يصنعه الطغاة، فلا بد أن تبحث في صنف النساء!

«نابليون بونابرت»
حماس متهور

هوذا «نابليون بونابرت»، باهر العظماء والمخيّب لآمالهم في الوقت ذاته، رآه «هيغل» كما لو أنّه روح العالم تمتطي صهوة جواد، هذا قبل أن يعبث جنود الامبراطور ببيت الفيلسوف. خصّه «بيتهوفن» بسمفونية «ايرويكا Eroica »، قبل أنْ يتراجع عن إهدائها له، لمّا عرف أنه نصّب نفسه إمبراطوراً.

لعلّه كان يمثل في طور صعوده آنذاك روح التغيير ونبضه، قبل أنْ يستقرّ على ما تفاجأ به أنصاره قبل أعدائه. وقد غاب عن بال محبّيه أن إعجابهم بما يمّثله هذا الشاب مِنْ توقّد وحيوية للتغيير، ليس إلّا بداية لما آل إليه طغيانه الناجم عن فائض الحماسة والحيوية ذاتها التي كان يتمتع بها شاب طموح ومعتلّ بعلّة الأنا، ككلّ البشر.

فكيف لو كان قد تعرّض إلى جرعة كافية مِنَ الاضطهاد العاطفي وهو طفل؟

السؤال الدائم: هل الحكمة والتروي مِنْ فقدان الحيوية والاندفاع؟!

الفراغ الروحي... ماذا بعد؟

إذا كنا قد شهدنا من القرن السادس عشر.... حتى القرن التاسع

عشر.... ولادة معظم الفلاسفة الكبار؛ فالسؤال: هل مِنْ سبب وجيه لهذا الحصر الفلسفي في مرحلة تاريخية اتسمت بفراغ روحي هائل، بعدما انحسرت العاطفة الدينية، مخلفةً وراءها هوّة شاسعة بين ماضٍ محكوم بأيديولوجيا دينية، وحاضر مرتكن إلى عقل ما زال يلهث بحثاً عن ضالته العقائدية؟ أما كان احتشاد الفلاسفة في تلك المرحلة بمثابة استجابة لتحدٍّ جدّي، بغية الخروج من تيه الضلال الناجم عن فراغ ما بعد الامتلاء؟

لعلّ في عصرنا هذا ثمّة تحدياً مِنْ نوع آخر، لا يحتاج إلى فلاسفة، بل إلى أباطرة أشداء، علهم يُوفّقون في التخفيف من كثافة هذا اللحم البشري المكدّس الذي بات يُثقل هذا الكوكب بأعداد هائلة، بما لا يسمح لنا التأمّل برحابة فضائه الشاسع.

الخيبة الوجودية هي الأصعب

لكل شخص خيبته الكبرى، يتقبلها بمرارة وأسى، قبل أن يعتاد عليها ويتكيّف معها كواقع، أو بالأحرى، كجزء من واقع وجوده في عالم طافح بالجهل والشرّ والطغيان.

لهذا، كانت خيبتي من النوع الفريد، نزلت عليّ كالصاعقة ما أن أدركت حقيقة أنّ العالم لم يُخلق لي...!

وإنْ متّ، فالشفق الجميل سيعود، كما أن ربيع السنة المقبلة سيملأ الوديان والسهول بالورود والرياحين كعادته؛ وستبقى المرأة

تلك التي أغرتني بجمالها حلوةً لغيري، وأيضاً سيتكرّر الشغف الذي أسعى للاستمتاع بلحظات منه، لسواي.

لكن، ثمّة ما يواسيني في هذه الحالة، ألا وهو مشاركتي الآخرين خضوعهم للشقاء نفسه، ومع مرور الوقت صارت كل الخيبات المتلاحقة، صدمات هيّنةً بالقياس إلى خيبتي الوجودية الأولى.

نيتشه وتكرار الأصل

ليس للفلسفة مِنْ وظيفة أسمى مِنْ وظيفة تدنيس المحرّمات السائدة والممنوعات الراسخة في مجتمع يتكيء على رزمة من الأقاويل الشفوية والأحاديث المرسلة مِنْ غياهب زمنٍ مضى... وعاقل قضى...

لقد استحال دور الفلسفة اليوم، بحثاً عما بقي مقفلاً أمام العقل اللاهث وراء المعرفة، معرفة علّة ظهور الانغلاق بعد كل فتح جديد...

لعلّ «نيتشه» قصد «بصيرورة البراءة» الإشارة إلى أنّ الحياة كلها هي بمثابة سلسلة طويلة لتكرارات متصلة بعضها ببعض على شكل حلقات دائرية، بما يجعل مِنْ مفهوم العَوْد الأبدي، تكراراً للأصل... وهو الأصل.

ارتداد الحالم أشدّ

ردّة فعل الصادق على ما ظنّه حقيقة مطلقة، ولم يكن كذلك، إلّا في عقله، خطيرة جداً، ذلك أنّ حجم الخيبة يوازي حجم حماسنا وإخلاصنا إلى ما اعتقدنا به، يوم كنّا حالِمين.

وعليه، إنّ أسباب السخط والنقمة عند المرتدين، لها تبريرات منطقية أكثر إقناعاً من حجّة الراجمين لهم بالشتم والسباب بدل الحجارة.

الرابح الأكبر مِنْ هذه العملية، صنف خوا مِن الحيوية والرغبة بالامتلاء والاكتمال، بحُكم السنّ، ليتخذ نصف موقف وربع قناعة، وأيضاً ليأخذ بَدَلَ أنْ يعطي.

ماذا يعني أن تعشق؟

ليس من تفسير لأفول حكايات الحب الكبرى في خاتمة تراجيدية، إلا لسبب وجيه وجاهة الاعتراف بأنّ الحب لا يعدو أنْ يكون تصوراً فائقاً عمّا نرغبه مجسداً في شخص الحبيب. فالعشق تمثلات ذاتية تنبع مِنْ داخل الأنا.

لهذا، ما إنْ ينتقل العاشقان للعيش تحت سقف بيت واحد، حتّى تقع الواقعة بالطلاق، ذلك أن حجم الخيبة من اصطدام تصورنا عما

نعشقه في الحبيب بما عليه واقع الحبيب، يؤدي حتماً إلى انفراط عقد الحب بسرعة خاطفة، نفهم معها سخط المخلصين ونقمتهم المريرة على ما أخلصوا له بصدق، قبل أن يكتشفوا بأن المسألة واهية مِنْ أصلها.

وعد السعادة أجمل

مع نهاية كل الحكايات الكبرى والوعود الملحمية، انتهت تلقائياً كل صورنا العظمى عن الإنسان. فما نحن مدعوون إلى الإعجاب به في هذا العصر، ليس إلّا نماذج من النجوم والمشاهير، مغنّين ورياضيين وممثلين ومقدمي برامج... إلخ. فالصورة تملأ المشهد كله، ولا شيء غيرها بحيث لم يعد من متسع للأحلام الجميلة، ولا من أمل للتغيير ولا للتحول من مرارة الأمر الواقع الجاثم والمتحقق، لأنه كذلك أمر واقع، إلى الوعد بيوتوبيا أحلى وأجمل.

هذا ما آلت إليه حداثة الإنسان المعاصر الذي بات عليه أنْ يتصالح مع رتابة التكرار والوحدة والقلق.

تباً لهذه الحياة، ما يهمني ليس تحقيق الأحلام، بل مفعولها السحري على الإنسان، فيستحيل سعيداً بوعودها وبما أمّل النفس به ذات يوم آتٍ... ولا بأس من انتظاره... وهذا ما كان يجعلني مغتبطاً بفكرة السعادة المرجأة أكثر مما تهمني السعادة نفسها، لعلّ السعادة

فكرة وليست أي شيء متجسّم؛ وبحسب المفكر (إميل سيوران) «كل مجتمع عاجز عن إنجاب يوتوبيا وتكريس نفسه لها، هو مجتمع يتهدّده التيبس والخراب». وبالمناسبة لربما نعيش اليوم عصراً متيبساً، لأنّ الناس باتوا يهذون بترّهات لا معنى لها، من أجل تعبئة الفراغ بصور مقدمي البرامج والفنانين ورجال السياسية، بما يعني أنّهم غير راضين عن إحلال الرفاه المدني وثقافة الاستهلاك محل الله والحكايات الطوباوية الكبرى...

مفارقة سياسية... عفواً أخلاقية

اللافت فيما تبثّه وكـالات الصحافة العالمية، فسحة مِنَ «الخبريات» الأخلاقية التي تنتمي إلى صنف «النميمة» باعتبارها ليست إلّا تعبيراً عن الشفافية المزعومة في المجتمع الغربي. ذلك أن مقاضاة الوزراء والرؤساء على هفواتهم الشخصية، أو بالأحرى، زلّاتهم الأخلاقية كمسؤولين، لا يحقّ لهم ما يحقّ للآخرين، فيه مبالغة تثير العجب والاشمئزاز على حدٍّ سواء.

فمثلما وقف الرئيس الأميركي «كلينتون» أمام القضاة لدفع تهمة انتصاب عضوه اهتياجاً على إحدى موظفات البيت الأبيض، ها هو رئيس وزراء بريطانيا «براون» مُنشغل منذ ثلاثة أيام، لا لتخفيض قيمة الضريبة على الأجور، إنما للردّ على اتهامات الصحافة له بأنّه عصبي

المزاج وسريع الغضب حيال أخطاء مساعديه. مكمن العلّة ليس في هذا...، إنما في انشغال الرأي العام الأوروبي بخبريات الرؤوساء الخاصة مِنْ أجل تقويم أدائهم الأخلاقي، أكثر مِن أدائهم السياسي؛ وعلى أهمية الأخلاق في السياسة، إلّا أنّ الأمر برمّته مرتبط بتاريخ من الطوباويات المسيحية والشيوعية التي تبدو علائقها التاريخية فاعلة عندهم بطريقة منبثّة في عيون الإعلام التي ما برحت تراقب أخلاق الساسة وأعضاءهم التناسلية.

فأن يؤدي تقدير خاطىء في السياسة إلى تهديد حياة آلاف الناس، هذا فيه نظر، أمّا أنْ تشتهي امرأة جميلة وهي تتبختر بتنورة قصيرة، فهذا ما لا يجب التسامح معه، بل تجب المساءلة والمحاسبة بطريقة تدعونا إلى الاستهجان من رغبة الناس أو الرأي العام بجعل رؤسائهم صوراً لملائكة عفيَّة مِن الرذائل البشرية.

بهذا المعنى، خلصت إلى النصيحة التالية: عليكم يا أيها الناس أنْ ترتابوا بأمر رئيسكم إن لم يشتهِ امرأة جميلة تجلس إلى جانبه، إذ إنّ أي خطب في غريزته الجنسية، قد يؤدي إلى عقم، سيترجمه جنوحاً نحو سياسات مدمّرة بالمطلق.

قل لي إنْ أثارتك المرأة الحلوة تلك، الواقفة أمامي الآن على الشرفة... أقل لك أي سياسي أنت...

مشهد تراجيدي آخر من يوميات «كافكا»

لكي تخرج كلماتك صادقة من الأعماق، عليك ألا تكتب بالحبر، بل بنزيف الجرح الذي أصاب «كافكا» بألم لا يضاهى، يوم تناول عمّه إحدى أوراقه المكتوبة. «تأمّلها سريعاً... ثمّ أعادها وهو يقول للآخرين الذين كانوا يتابعون المشهد: الهراء المعتاد».

إنها واحدة مِنَ الصدمات التي شحنت «كافكا» بسخط مطلوب، لكي يكتب الشيء الذي جعل من اسمه صفة لنوع الألم والسخط الذي لم يكن لدينا أي فكرة عنه، قبل «كافكا».

المصاب الوجودي لـ «شكسبير»

لا تكمن أهمية شكسبير بما كتبه مِنْ شعر ملحمي رائع، ولا بنفاذ بصيرته إلى حدّ الشجاعة الخارقة لتماهيه مع خالق الخلق، ولا بما اتحفنا به من أوصاف مطابقة لما يمكن أنْ ينطق به جدار صلد وهو يستنكر الفوضى العارمة التي علّقها البشر عليه، ولا أيضاً بإحساسه لما في العشق من سعادة أذابت الألم، فتجرعت كأس الفراق... لتنتشي بأمل اللقاء... لقد فات العاملون بالشأن الفلسفي إضافة «شكسبير» إلى قائمة الفلاسفة الوجوديين، بعد أن تأمّل في إكسير الحياة ليجد كمونه في موت، هو أيضاً عانى مِنْ حتميته، في هذه الإحالة الجدلية الدائمة،

أي في انبعاث الحياة من جديد، لا تلبث أن تذوي عبر موت، ينقضي هو التالي لصالح حياة جديدة، فموت جديد، وهكذا دواليك.

ألديكم تعليق آخر على ما جاء عنده من سونيت شكسبير (64) البكاء على الأطلال؟ «علّمني الخراب أنْ أتأمّل هكذا: إنّ الزمن سيأتي وينتزع حبيبي منّي، وهذا الخاطر مثل موت، لا خيار لديه سوى أنْ يبكي لأنه يملك ذاك الذي يخشى أنْ يخسره».

طفولة مسؤولة!

إذا كانت الطفولة إحساساً طبيعياً بعدم تحمل أيّة مسؤولية، فمن يريد أن يكبر، غير اليائس وذاك المثقل بهمّ تدبير عيشه، منذ أنْ ولد؟

على الموهبة أنْ تَظهر... ومِنْ ثم تُصقل

أكاد أنْ أجزم أنّ المرء لا يحتاج إلى عمر مديد، لكي نتبين معدنه. فمنذ الصبا يتكشف ما سيفعله، وفي هذا الطور بالذات تتفتق موهبة الشخص، أي في ذروة أحاسيسه المتوقدة تلك التي لا تلبث أنْ تخبو كلما تقدّم في السن، ليعقلن الأشياء محتسباً فيها الربح والخسارة كما الضار والنافع؛ بما يجعله يتروى ويستكين؛ فلا يُقدم على ما كان يتجرأ عليه يوم كان حالماً بأنه هو خالق الخلق ومالك الدنيا. وما عليها...

على هذا الأساس، فالكتابة في عمر الشباب، تكشف عن زبدة

الشخص، وتُظهر خامته النَّضِرة والطرية؛ وبعد ذلك، أي بعد أنْ يكبر وينضج، يقضي جلّ وقته في صقل موهبته، تشذيباً لما يعرقل طريق نجومية، لها اشتراطات مغايرة كلياً. كأنْ تتحلى بالصبر أكثر من الشجاعة، لكي تتحمل غلاظة بعض الناقدين، وأيضاً بالهدوء لا الغضب، لكي تمتص غباء بعض الحسّاد من المحيطين، وبالرياء لا الصدق لكي تسكت وتتصبّر لسماعك حماراً يملي على السامعين مِنْ علياء منبره معياراً للحسن والقبيح.

علينا ألّا نأمل من شخص لم يفح أريجه قبل سنّ الأربعين، أنْ يتحفنا بشيء مميّز ما بعده... فبعد ذلك يعطي بسلوكه المتزن ورصانته في التعامل مع الناس، قيمة مضافة على ما تجرأ على قوله. قبل ذلك بكثير.

«كافكا» هذيانات واقعية

عندما تقرأ قصص «كافكا» ورواياته، تشعر بأنّ صاحبها استمد خيوطها من أضغاث أحلامه، أو بالأحرى، مِنْ كوابيس استحوذت على وعي إنسان استفاق والناس نيام، أو بالعكس، هو نام والناس مستفيقون.

وفي كلتا الحالتين، يروي لنا هو حكايات غريبة ألفنا حصولها مع أي منّا؛ فعبّر بذلك عن هذيان كل إنسان تعرّض إلى نصف ما تعرّض له «كافكا» مِنْ اضطهاد عاطفي خلّاق.

الحبّ خيبة حتمية!

الحبّ انشغال «جوّاني» من أجل علاقة عاطفية تتوطّد أواصرها بين العاشقين من خلال السعي الدؤوب لإكمال ما شرع به الاثنان... لكن ما أن يكتمل ذاك الذي كانا بصدد إنشائه، حتّى تنطفىء جذوة المشاعر، وتذوي العواطف، بعد أن تجسّد المحبوب بلحمه ودمه، بعريه وارتداءاته، بدمائة خلقه وتفاهاته، بجماله وبشاعته، فأطبق على الفسحة التي يحتاجها المحبّ كي يتخيّل حبيبه بالوضعية التي يحتاجه فيها، إنساناً خارقاً، ليس هو كذلك، إلّا لأنّه يمثّل لنا ما تريده... ما ترغبه... ما تحتاجه الأنا المصعوقة مِنْ خيبتها بالمحبوب ومغايرته التامة عمّا تمنّيناه فيه!!

فنّ تحوير الكلام

الأمر برمته يتعلّق برشاقة التفوّه بما عندك، كي يصير شيقاً وممتعاً للسمع.

نجوم الكلمة ومشاهير الإعلام تعلموا من الآخرين درساً مفاده: إنّ فنّ تسويق ما عندك، يوازي، لا بل يفوق بأهميته المضامين التي قالها غيرك بغلاظة منعت تطويبه عبقرياً.

«نيتشه» حلّ افتراضي لمشكلة اللغة

قرّر «نيتشه» وغيره مِنْ فلاسفة اللغة، أنّ المشكلة الأصلية تكمن في اللغة؛ فبمقدار ما توفر لنا اللغة سبلاً للولوج إلى لبّ المشكلة، بمقدار ما تحجب عنّا مفتاح الحل.

فاستلِب التفاهم والتواصل إلى مبتغى لغة متكونة بإحكام جعلها تقول ما في نفسها أكثر مما تعبّر عن لسان حال قائلها؛ فالمتكلم يقارب معنى ما يريد عبر لغة تقول بذاتها ما لا يقصده الآخر منها. وهذه إضافة تشوّه المعنى المُراد بما يجعل مِنَ اللغة مشكلة وفيها الحلّ أيضاً.

ماذا لو اقترحنا اعتماد لغة الخرسان. ذلك أنّ الإشارة تتيح التواصل بأسلوب أدق، لا يحتمل هذا الكم من تأويل المفوّهين.

الحياة علك للشقاء

للفرح لحظاته، وللمأساة أيضاً قصصها الطويلة. هل سمعتم يوماً شخصاً يتحدث عن سعادته؟ قطعاً لا. إننا نحكي حكاية بؤسنا في حياة ابتُلينا بها، لأنها أقصر من أنْ تروي ظمأ شغفنا بموجوداتها، وأقل من أنْ تُشبع جوعنا للأبدية.

فالحياة ببساطة أخسّ مِنْ أنْ تقاس بما نحلم به. ما إن ولدنا حتّى كُتب علينا أن نتدبّر همّ وجودنا في هذا الوجود اللامحدود... نتخبّط، نتصارع، نتنافس من أجل غايات، ليست بأهمية لحظات ساخرة

نرتشفها بسرعة البرق؛ وما أن تنقضي... حتّى نعود إلى علك شقائنا في حياةٍ قصيرة، لا تستحق هذه المكابدة.

للعواطف أسبابها

العواطف ليست غير كمٍّ من التمثلات المتراكمة في الوعي وفي اللاوعي حيال الآخر، وبالعكس. ولأنّ لهذه التمثلات خصوصية مرتبطة بفرادة تكوين الأشخاص وتفاعلهم منذ أن كانوا صغاراً، علينا ألا نحتسب مقدار العاطفة بميزان العقل.

فالقياس المنطقي لا يمكن أنْ يفسّر انجراف امرأة جميلة بهوى رجل حمار. وإلّا لأدركت أنت نفسك علّة انجذابك إلى مشاعر جارفة، ليست هي في حقيقة الأمر إلّا ضرباً مِنَ الأوهام المتربصة في النصف الثاني من الجمجمة.

الانتماء... ونعمة الجهل

لعلّ الانهماك في تدبير شؤونك اليومية نعمة، فلا يُتاح لك عندها أن تستغرق في غمّ المسائل التي تؤرق المتأملين في أسئلة وجودية صعبة. لماذا وجدت؟ ماذا لو لم أولد؟ وما الحكمة مِنْ وجودي ما دام موتي محتّماً لا محال؟!

عِشْ على سجيتك إذاً، بمقدار ما تعرف. فالجهل بهذا المعنى

يجعلك تأكل وتشرب وتمارس الجنس بمعيار عقيدة دينية، يفيد الاتكاء عليها عند الشدائد. ولا تشغل بالك بالصح والخطأ، أو عمّا إذا كانت الوعود الغيبية واقعاً أم وهماً، ما دامت تخدم الغاية المثلى في أنْ تعيش بطمأنينة وسلام.

إغواءات شيطانية

يظهر الشيطان فجأة ويطلب مِنَ «النبي ابراهيم» أنْ يَعصى أمر ربّه ويرتدع عن افتداء ابنه إسماعيل. وفي الحكاية الأصلية أنّ الشيطان أبى أنْ يسجد لآدم فكان أنْ لعنه الله فاستحال شيطاناً رجيماً بسبب تمرّده. في حكاية «فاوست» عهد «غوته» إلى الشيطان أمراً آخر، أن يلعب دوراً محورياً، لكي ينقذ رجلاً مُنهكاً محبطاً، سئم الحياة، فما كان من الشيطان «مفيستو» إلّا أن افتتنه بعرض جذاب، فيه مِنَ الإغواء ما يكفي لئلا يقدم «فاوست» على الانتحار بالسمّ، ما دام بإمكانه الحصول على الحسناء «مارغريت» مقابل التحكّم بمصير حياة «فاوست».

إن «دراما» الأحداث الحاصلة، تُنهي المسرحية بتراجيديا خاتمة شيطانية، فيها من الفتنة القدر الذي جعل مِنْ تأليفها إبداعاً رائعاً، تقمص فيه الشيطان دوراً ملهماً للعشاق هنا، ونبراساً للتمرّد والثورة على السلطة في المسرحيات الدينية السابقة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

لن أعلّق... ولن أُضيف.

العقل السليم في الجسم المعتل

الفلسفة والأدب والفن عامةً، ضرب مِنَ الهذيان الحسّي المفرط مِنْ وجعٍ ألمّ بنا في لحظة ما... ومكان ما...

بهذا المعنى، فالاضطهاد برمته ليس إلّا تعكيراً للمشاعر الراكدة كانت في لجج طفولة شقيّة، تعرّضت إلى تنكيل نفسي أو جسدي، أدى بصاحبه إلى أن يشتد ويتجرأ على مصابه، وذلك بالمكابدة والجَلَد، لينتصر على علّة ضعفه ويصير قوياً وعظيماً.

فإذا كانت الفلسفة بحسب تعبير «نيتشه» عبارة عن تأويل للجسد، عن سوء فهم للجسد... إلامَ يصير الفكر عندما يخضع لضغط المرض...؟ يقود الذهن على حدّ تعبير فيلسوف الهدم، بلا وعي، نحو الشمس، نحو الهدوء، نحو العذوبة، نحو الصبر، نحو الأدوية، بمعنى ما نحو التعزية...!

صفاء الفكر إذاً، مِنْ عكر أوجاعه. والعقل السليم في الجسم المعتل. فيغدو توهج العقل وتوقّده من خفوت الجسد وعجزه عن اعتراف لذائذ المادة ومتعها.

قبل أي شيء... الجرأة شرط الكتابة

الكاتب الجيّد، يتسم بالجرأة على اختراق المحرّمات

والممنوعات التي تجعل مِنَ كل الأفراد الخانعين، أسوياء وأتقياء في الالتزام بالاستقامة في شتى أنواعها. يبوح بالمحرّم بفرح، ويكشف عن المستور بثقة، لا يهتم أبداً إلى شعارات الدول وأحزابها، ولا يُبالي إلى ما يتفوّه به زعماء الكلام ونجومه. يَنْفُذ منْ كثافة البداهات المُطبقة على العقول، ليقول لنا كم هو خاطىء الارتكان إلى ما نعتقده صواباً، وكم هو خطأ الارتكان إلى حقائقنا المطلقة.

مفارقة الأخلاق في الاتجاهين...!

مردّ جرأة الزعماء الدمويين، مِنْ انعدام تحليهم بالأخلاق، ككوابح رادعة. ولعلها تأتي مِنْ فرط تربيتهم على قيم أخلاقية صارمة، داسوا عليها، ما إنْ سنحت لهم فرصة الهيمنة والبطش.

والمبدعون في الأدب والفلسفة والفنّ، هم أيضاً مِنْ صنفهم، مع فارق أنّهم يعانون حساسية فائقة منْ آلام اغترابهم عن جموع غفيرة، آمنت بأنّ قدرها في أنْ تموت تحت الأرجل، أي أنّها خُلِقَت للرفس، ليس إلّا...!!

صقر يطير... ودودة تحبو...

كيف يتجرأ الخسيس على شتم الأشخاص الذين يحلقون في

الأعالي؟ ثمّة سبب وجيه، يتشبّه بعجز الدودة التي تحبو على التراب، تحت أنظار صقر يطير وهو يحدّق في عين الشمس.

أن تروي يعني أن تُستفزَ وتتوتّر

تولد الرواية الأجمل مِنْ خميرة الاستفزازات التي تحفّز الروح على البوح بمحرمات خانقة.

إستفراغ السمّ أدعى مِنَ الموت خنقاً، أو بالأحرى خوفاً من الفضيحة...

تفسير تاريخي لصيرورة الرسم

أبْدَع الرسّام الإسباني «فرانسيسكو غويا» في «النزوات» لوحاتٍ تصويرية معبّرة عمّا يجول في خاطره، عبر أسلوب فنّي جديد، التفَّ به على عين الرقيب، ليسدّد موقفاً حاداً، مِنْ دون أنْ يؤخذ عليه انتهاكه للأصول المتبعة. فكانت رسومه جريئة في الدعوة إلى ما يستطيع التملّص منه أمام المرائين والكذابين والقضاة، أو الكهنة والملوك وكل السلطات التي أراد التمرّد عليها، حتّى أنّه لم يوفّر الفقراء ولا المستلبين إلى أوهام خلقوها لأنفسهم على شكل معتقدات، أبقتهم مسحوقين ومنصاعين لأوامر سلطات، استمدّت قوتها مِنْ جهل المحكومين بعلّة بؤسهم وشقائهم.

مع «غويا» لاحت تباشير الرسم التعبيري والانطباعي والسريالي... الخ؛ نتيجة ضرورات تاريخية، ما لبثت أنْ ذوت لتغدو مذاهب مرموقة، احتلت حيّزاً لا بأس به مِنْ ذائقتنا للرسم.

كسل المؤدلجين

إنّ مواجهة الأيديولوجيات المتطرفة، تحتاج إلى حذاقة أكثر مما إلى قوّة؛ فالعنف يغذي منطق «المناطحة» عند أصحاب العقول المتحجّرة والمنغلقة على حجج واهية، تعتقد بأنّها منذورة لخلاص البشرية وتنقيتها من الأشرار وخفافيش الليل، هؤلاء العاملين على تدبير مؤامرات ومكائد، كي ينالوا مِنْ كمال العقول وتمام العقيدة....

أن ترمي بمشاكلك على الآخرين، أسهل بكثير مِنْ أن تتكفل أنْتَ بحلّ تعقيداتها المتشابكة والمترامية...!!

أتفضّل الانطفاء في «النيرفانا» أم الخلود في الجنّة؟!

هل خطر ببالك يوماً أنْ تسأل نفسك عمّا إذا كنت ستسأم مِنَ العيش الأبدي في حياة الآخرة... عما إذا كنت ستملّ مِنْ رتابة الجمال في حياة خالية مِنَ البشاعة.

ولأن الجميل ليس كذلك ما لم تقسه على الشنيع، فسؤالي الأصعب هنا يكمن في أن تتخيل نفسك تعيش في عالم الجنّة، خارج الزمان كلياً، ليس فيه ما يحثك على الاستعجال، ولا على المنافسة، ولا على المكابدة، لكي تميز نفسك من الباقين. ستفقد عندها بالتأكيد فرادتك، وستلعن قدر فوزك بحياة طويلة ورتيبة، لا تنتهي بالانطفاء في «النيرڤانا».

معنى أن تنحاز لأهلك ولو كانوا...

«ضعف الآخرين قد يحطمك بالقدر الذي تستطيع قوتهم أنْ تفعل ذلك»...

عبارة قرأتها، فقرّرت التعليق عليها بسؤالي القارىء عمّا إذا كان بمقدوره أن يتخذ قراراً عقلانياً صائباً، في حال سيطرت عليه مشاعر من النوع الذي ينجم عن الإحساس المفرط بضعف الأشخاص المقرّبين؟

ذلك أنّ العاطفة التي تؤذينا هي مِنْ يعطي تفسيراً لانحيازك إلى أمّك حتّى ولو كانت كذا...!!!

كآبة متأصّلة

في صباح يوم ماطر، ارتديت معطفي كعادتي على عجل،

وخرجت لا لشيء، فقط لأخلع عن روحي جدران بيت، أطبق على أنفاسي، حتّى كدت أن أختنق.

وأوّل ما وقع عليه نظري في الخارج كان عصفور «أبو الحنّ»، وهو يتنقل بذيله الأحمر الرجراج مِنْ على شرفة الجيران بطريقه أعادت إليّ الإحساس بسنوات طفولتي الجميلة؛ فأيقظ فيّ شيئاً مِنْ خفّة الصبية ولفحني بانشراح اللامسؤولية، هذا بعد أنْ استبدّت بي كآبة، أجهل سببها، وإلّا ما كنت لأكتئب. أعلم فقط أني لست راضياً... لا يشبعني إلهاء، ولا يسلّيني إطراء...!!!

هل الانخراط في «المافيا» انتماء أيديولوجي؟

هل تعلم أنّ «للمافيا» آليات عمل واضحة وقيماً شفافة، تبدأ من قمّة الهرم، أي من الزعيم الذي يُدرك بأنّ انقلاب أقرب المقربين عليه، احتمال مشروع، وهو ضمن نطاق انتمائه إلى ما يجعل قتل الخائن جزءاً من عملية استمرار العمل المافيوي.

فالاتجار بالممنوعات والربح غير المشروع، ليس إلّا وسيلة، لكي يمارس عناصر المافيا لذّة استبدادهم وتسلطهم المُستمد من جرأتهم على قتل الآخرين ببرودة أعصاب. وبالمناسبة همْ أشخاص مضطربون وليسوا مستقرين، لا خشية لديهم ولا من وازع ديني يردعهم عن التعدي على ما يخاف منه المؤمنون؛ وهم ببساطة أشخاص مرذولون، ولا يملكون أي شيء كالذي يجعلنا نخاف من خسارته. ومع ذلك

عليك أن تحتسب مما تكوّن لديهم في خضم عالم الجريمة. إذ إنّ ثمة عناصر أيديولوجية ينتمي إليها أفراد العصابة، تتجلّى في الطقوس التي يمارسونها من أجل إبراز الولاء إلى هذا الزعيم أو ذاك.

فبهذا المعنى، إذا كانت الأيديولوجيا بمثابة تسامٍ ذهني عن الواقع، فَقَسَمُ الانتماء إلى عصابة المافيا، يعني بأن على الفرد منهم أن يفتدي بحياته، منْ أجل الحفاظ على السرّ؛ سرّ الانتماء إلى الجماعة.

ثمّة شبهة هنا... أتكلم عن «المافيا» وليس عن الأحزاب والتنظيمات الأيديولوجية في بلداننا!!

الموت ملاذ المُتعبِين

الخوف من الموت له علاقة بشيء غير الفناء... نخاف مِنَ الرحيل عن أحباء وأماكن وأشياء، تدفّأنا بعاطفتها... تآلفنا معها... واعتدنا عليها...، فالرحيل إلى المجهول مُفزِع، لكن الموت ليس كذلك إذا حسبناه انطفاء مطلقاً، فَمِنْ شأن الإيمان به على هذا النحو أنْ يخفّف مِنْ غلو ما بعده... في حياة صعبة تلقي بوزرها على كاهل المتعبين.

لهذا السبب، مَنْ يعش كآبة وحدة مرضية، يلجأ إلى الانتحار، وذلك لانعدام دوافع البقاء أو الاستمرار مع من لا يُحب ولا يألف.

فيُقدم على الموت برباطة جأش، كما لو أنّه يتجرع ترياق الخلاص من العيش في حياة شاقة وبائسة.

علاج «فينومينولوجي»

أنْ تثأر ممن اعتدى عليك، ومِنْ دون وجه حقّ، يلزمك ربما حياتين أو أكثر. لذلك أستعيض عن مثل هذا الانتظار الفظيع، باختصار سخطي على بعض الأشخاص والأشياء، عبر كلمة لئيمة... أو بالأحرى، عبر تخيلي للمدّعين السذّج والحمقى وهم يستجدون الرحمة بضعفهم.

«فان غوغ» يرسم أحاسيسه

لا يقتصر الذكاء الحاد على العقول؛ فالمشاعر هي أيضاً يمكنها أنْ تظهر بتضاريس وملامح واضحة وضوح النظر إلى ما رسمه «ڤان غوغ» في صورة نفسه. وكما أنجز رسم «الحزن» في امرأة تجلس عارية حزينة ومنكفئة على نفسها؛ ليضيف تحتها عبارة «كيف نسمح بأن تكون هناك ثمّة امرأة وحيدة وتعيسة على هذه الأرض؟». يمكننا أنْ نسمّي رسم صورة نفسه بـ «المنتحر» وقد نضيف تحتها عبارة: انظروا إلى تدفّق مشاعر الحزن، حينما تستحيل، صورة رجل بائس.

«الصرخة الميتافيزيقية»

إن «الصرخة» التي أطلقها «إدوارد مونخ» عبر لوحته الأشهر

«الصرخة»؛ لم تنل من رومنطيقيي القرن التاسع عشر، وإن صبغ الطبيعة بملمح سوداوي على درجة مِنَ الشاعرية؛ ولا هي تعكس الاضطرابات النفسية التي صاحبت دخول الإنسان المعاصر إلى القرن العشرين؛ كما أنها لا تفسّر حالة رسام يعاني من أرق ذهاني، أو رهاب حالة نفسية مُثقلة بشقاء طفولة معذّبة. فهذه كلها اجتهادات محقّة لمقدار الألم الخابي في كل منّا حيال وجودنا في عالم ظالم، لأنه محكوم بمبدأ «الحياة للأقوى». فكانت «الصرخة» رسماً تعبيرياً عن ماهية الألم الذي يشعر به إنسان مفرط الحساسية حيال حلال ذبح الحيوانات المغلوبة على أمرها كتلك التي شرّع الله أكل لحمها.

هوذا سخط إنسان فاقد للحيلة. فعندما لا تملك إلّا أن تصرخ في هذا الوجود الخاوي مِنَ الرحمة والشفقة، يصيبك ألم ميتافيزيقي خارج حدود الزمان والمكان.

مذاق حضاري

خلال أسبوع مِنْ زيارتي «موسكو»، أدركت بأن الانتماء إلى الشيوعية، هو انتماء إلى فكرة واعدة كانت بأحلام أجمل مِنْ تحققاتها في نظام يعاني من آفة ذاتية قاتلة.

وإذا ما أردت أنْ تضيف شيئاً آخر إلى استنتاجاتك، عليك أنْ تدرك بأنّ الانحياز إلى الشيوعية في فرنسا له طعم الموضة الباريسية الأطرى والأنعم من الإحساس الجليدي القارس في روسيا الأرثوذكسية.

«الإنترنت» عصر بلا روح

بالعودة إلى «سيوران» في مئويته الأولى... لا أريد أن أتذكّر ما قاله... بل ما كان سيقوله لو تعرّف عن كثب إلى جيل «الإنترنت»، أو بالأحرى إلى «الإنترنت» في جيلها الثالث. لن ينتحر بالتأكيد، لكنه سينحر الآلات الصمّاء بروحه الساخرة لرؤية أزرار هذه المكعبات، تجرّ وراءها قطعاناً غفيرة من البشر الذين استعاضوا عن الكراز القائد بكمبيوتر لا ينبض ولا يتفوّه إلّا بتكرارات أخسّ مِنْ كلام أي زعيم جحش. إنها سمة عصر فقد روحه.

هالة الزعيم

يعمد قادة السياسة عندنا إلى إحاطة أنفسهم بهالة الانهماك بشيء أعظم من التلهي بسخافات جماهيرهم. وذلك كي يحتجبوا وراء الستارة، أي في الموقع الذي لا يجعلهم فقط يلتذذون بمتعة التلصص على الآخرين.

ثمّة سبب أكثر وجاهة لا تكتشفه، مع الأسف، إلا حينما تذوي هالة القائد، بعد الانقلاب عليه، ينسى خلالها نفسه زعيماً موقراً، ويعود إلى ما هو عليه أصلاً، فينقر أنفه ويحكّ (طيزه)...!!

الثورات العربية...
إزاحة الرابض على صدورنا أولى...!

عاد التاريخ ليطلّ برأسه على عالمنا العربي، مِنْ بوابة الثورات التي راحت من خلالها الجماهير تنفض عنها رماد القومية الذاوية، كما الاشتراكية والوطنية والعروبة والوحدة أيضاً. ذلك أن العناوين التي حكمت بموجبها أنظمة عربية متحجّرة في رؤوس زعماء وقادة، تسبّبت بمأساة التخلّي عن شعارات، ليست المشكلة فيها، إنما بجنوح استعمالها غطاءً لممارسات قمعية، ضدّ كل من ينتقد وكلاءها الحصريين... إنّهم بمثابة وكلاء الحقيقة على الأرض.

وعلى شاكلة ما فعله «نيتشه» فلسفياً حينما أمات الله ليحيا الإنسان الأعلى... ما يحصل سياسياً اليوم إنما هو تقويض لهذا الشكل مِنَ العروبة مِن أجل بناء صرح عصري لها...

ولكي لا أُتّهم بالتفاؤل، لستُ بواهم أنّ الديموقراطية والعدالة الاجتماعية ستتحققان في الغد القريب، لكني ومع ذلك مِنْ أشدّ المتحمسين إلى زحزحة القائم؛ إنها لحظة تأسيس على ما ينبىء بعودة التاريخ العربي إلى سكّة الحراك والتجربة.

كيف أن التحجّر
العقائدي عند اليسار أكثر من يميني

يمينية اليساريين الجُدد، مِنْ رجعية انجذابهم ـ انشداههم بأنظمة شمولية لا تزال تكابر في الاستمرار على منوال الأنظمة الاشتراكية التي تداعت مِنْ تلقائها وبطريقة دراماتيكية.

هكذا تجد كل من ينتمي إلى ذاك اليسار، لا يزال مهموماً بالبحث عن بريق أمل لمواجهة رأسمالية النظام العالمي، حتى ولو كان من خلال أنظمة تيوقراطية يحكمها اعتقاد ديني على نقيض مِنَ الانتماء الدنيوي لليسار المزعوم.

والسؤال: هل إنّ دوغمائية الانتماء اليساري تتماثل مع أعتى الدوغمائيات التي تستمد هويتها، لا مِنَ الانضواء في مشاريع بناءة للمستقبل، إنما بالضدّ مِنْ المشاريع القائمة، كالرأسمالية التي انتمى الشيوعي إلى ضدها في يوتوبيا، ليس إلّا...؟!

شاعرية «نيتشه» الفلسفية تتفوق على شعره

هل قرأت «نيتشه» الشاعر؟

لا أنصحك، لئلا تعزف عن قراءة فلسفته التي تحملك إلى الارتحال بعيداً في عالمه الشعري الخاص..

شطحات سيكولوجية

إذا صحّت التفسيرات التي عزت نتاج العباقرة والعظماء إلى مصاب نفسي، لَنْ أجاري القول بأنّ رسالات الأنبياء هي كذلك، هذيانات سيكولوجية، وأستنكر بشدّة الكلام عن أنّ وجود الله، ليس في الأصل إلّا تهيؤات تنتمي إلى المصدر ذاته...!

رحابة رسّام

حرّر «مامي بيسارو» الرسم مِنْ جدران المراسم، لكي تستنشق رسوماته رائحة الهواء الطلق.

أراد أنْ تشاطره الهيام نفسه في انطباعيته التي جعلت رسوماته تنبض بالروح؛ وهذا كله يعبّر عن إيمانه القاطع بأن للفنان الخلّاق قدرة على أن يُجاري الخالق، حينما وهبَ رسوماته قبساً مِنْ روح عبقريته.

ما لن نتعلّمه

حظك سيئ إن تحوّلت العقيدة التي كنت قد آمنت بها حدّ الانطفاء، إلى «فولكلور خشبي» فجأة، وفي لحظة خاطفة، أو إلى أطلالٍ، أضاعت بين ركامها المأساة الإنسانية المتكرّرة أبداً.

هل الأمر يتعلّق بالخيبة مِنَ الآمال التي كدت أن تموت من أجلها في الشيوعية أو الإسلام أو...؟ أو...؟ المسيحية؟ أو اليهودية؟ أو البوذية؟ أو الكونفوشيوسية؟

عتق ذوَاقة التصوّف

ثمّة قراءات مرحلية، لا تنفع إعادتها، لأنك حينما تتجاوزها، لا تستطيع أن تتذوقها بالذائقة ذاتها لإنسان استنفد رومانسية «هيغو»، وثورية «روسو»، لمصلحة حسّ السخرية عند «كونديرا» وأيضاً تهكمية «ماركيز»، التي لا تلبث بدورها أن تذوي لمصلحة رغبة مفرطة بالانطفاء في رواية، أو بالأحرى، في شعر صوفي خالص لـ «عمر الخيّام» ولأمثاله مِنْ كبار السنّ وعتيقي التجربة.

الاعتقاد أفضل من التعري

إذا صحّ ما قاله الروائي «ميلان كونديرا»: «أحدهما يؤاخذ الشيوعية بعدم الإيمان بالمسيح، والآخر يؤاخذها بأنها قد تحوّلت إلى كنيسة جديدة»، أفهم علّة جزع كلتا الفئتين، المتدينين والليبراليين مِنَ الشيوعية الرسمية.

في حين صرت أقبع أنا في الخلاء، عارياً، ليس لدي مظلّة الإيمان

ذاك الذي سيبقى دواء شافياً، ما دام التآلف والتعاضد ثيمة الانتماء إلى ما يشد أواصر الجماهير إلى قومهم ـ وطنهم ـ طائفتهم أو عشيرتهم.

الإحساس لا يُعلَّم...!

كي تصير إنساناً مفرط الحساسية، عليك أنْ تتدرّب، عفواً، عليك أنْ تعاني وأنت في صغرك، ليس مِنْ تقنين عاطفي، فحسب، بل من الخوف والرهبة المصحوبة بشحّ العاطفة كالذي يجعلك ترتحل في تأملاتك بعيداً... إلى أنْ تُصبح طريح هذا المصاب... مصاب التأمل الدائم.

نظرية غير مُثبتة!

ما علاقة العقل البليد بالعمر المديد؟

سؤال سهل، إذا ما تقصّدت الإجابة عليه بأمثلة عينية، غير مثبتة في نظريات علمية، فالأخيرة تعجز عن شرح العلاقة بين مشقّة التفكير وإجهاد القلب واستنفاد الرئة أو الدماغ أو... أو... الخ.

أبو أكرم... وأبو عبدالله... وأم طوني...

أسماء لا داعي لأن تعرف عنها غير السبب الذي يجعلك تتوقع لها طول العمر. نعمتها في أنها غير مهمومة على الإطلاق، فهي لا

تكلف نفسها عناء التفكير بالمعنى المقصود في جملة مؤلفة مِنْ ثلاث كلمات؛ ونقمتك في أنّك تُجهد نفسك في التركيز على المعنى المُضمر مِنْ وراء وجود الخالق... أو المكتوب في موسوعة فلسفية.

لعنة العباقرة... وجه قرابة

لا أدري ما إذا كان ثمّة وجه شبه بين رسومات «ڤان غوغ» وكتابات «نيتشه»، لكني مؤمن بأن بين المبدعين وجه قرابة، وصلة ما، لجهة الإفراط في حساسيتهما الإنسانية المتوقدة على ما أدى بالاثنين إلى أنْ يُصابا بمسّ جنون العباقرة.

انتحر الأوّل بائساً... أما الثاني فمات قبل أن يشتدّ عليه شقاؤه.

مِنَ الجنون أن تتوقع مجنوناً

إن أوّل ما يمكن أن تلاحظه ممن سمع عن «نيتشه» ولم يقرأه... هو أنه مات منتحراً. لماذا؟!

ذلك لأنّه عبقري مجنون.

صفات تؤول في ذهن العامّة خاتمة المطاف في مثل هكذا نهايات تراجيدية. وفي هذه المرّة أيضاً خيّب نيتشه كل التوقعات، مات مجنوناً ولم ينتحر...!

سمو الرواية مِنْ تحقيراتها!

لماذا اعتبرت الرواية فنّاً حقيراً؟!

الإجابة تكمن في «المهابة»؛ مهابة الفيلسوف والمنظّر السياسي وعالم الاجتماع؛ حيث يتصف هذا الصنف من المثقفين، في نظر العامة، بخصال ميتافيزيقية، وإلّا ما كان لهؤلاء أن يجترحوا حلولاً، هي من اختصاص الآلهة وحدها؛ فمشاركة الله وظيفته تعلي مِنْ شأن صاحبها لتضعه في مصاف الرسل الممثلين، أو الشياطين المتمردين؛ وفي الحالتين ثمّة قداسة، يكنّها البشر للأنبياء في وعيهم، وأيضاً لإبليس في لاوعيهم.

ولعلّ تحقير فنّ الرواية، مردّه إلى إيمان أيديولوجي متعال عن التفاهات اليومية للبشر، فالراوي يتلفّظ بترّهات مُعيبة وتحقيرات تُدنّس سمو الملائكة والرفاق الشيوعيين، كما تُدنّس الأخوة المؤمنين بمنكرات، يُكابر العقائديون في النّأي عنها، بقوّة الإلزام الأخلاقي. فالراوي يستنبش كل الموبقات التي تختلج في نيّة شيوعي يحاضر عن عفّة أهدافه، أمام لفيف من النسوة الجميلات. ويُبرز كل ما يسعى إسلامي إلى طمره خلف ادعاءات عفّة، مشكوك بأمرها، هذا إنْ أُقحِم في ما لَنْ يصمد أمام إغوائه أعتى القديسين.

فالرواية إذاً، فنّ وضيع مِنْ فرط فصاحته في التعبير عن الفضيحة الإنسانية.

الرواية صغائر مرذولة

ـ سألني أحدهم: ماذا لديك هذه السنة؟

أجبت بالقول: أنجزت مخطوطة رواية عن... وقبل أن يسمع فحواها، قلب شفتيه وأشاح بوجهه متعجباً، ممّا بدا له هبوطاً، لا يرتجيه في مستوى كاتب فلسفي، لديه ذخيرة مِنَ المؤلفات التي يعتدّ برصانتها. وليُخفّف مِنْ غلو الصدمة، نفث عبارته الشهيرة وقال: لا بأس، ففي كل مشوار محطات استراحة، ولك الحقّ أن تخفّف عن نفسك عناء التفكير الجدّي، عبر رواية، تنتمي... وسكت.

لعلّ لياقة الجلسة، منعته مِنْ أنْ يُكمل ويبوح بما صرّح به صمته: «أي إنها تنتمي إلى فنّ الترهات والصغائر التافهة».

«بوذنة» مِنْ «بوذا»...

ما لم يقله بوذا: «الحياة استِفاقة ضيّقة، والموت انطفاء رحب».

أيضاً خيبة تعليق الآمال

أظهرت آخر الدراسات في مجال علم النفس، أن الكآبة التي تُصيب أشخاصاً محدّدين، مردّها خيبة المرء مِنْ تقديره الزائد لنفسه، أو لعمله.

ولأن المردود المتوخى مما هو عليه... مما فعله...، أقل مِنَ المتوقع، يُصاب بغمٍّ وسوداوية من النوع الذي يفسّر كآبة ما بعد الولادة عند المرأة الحامل؛ وكآبة ما بعد النشر عند مؤلف تضخّمت «أناه» إلى حدّ أنْ راح يتمثّل بعظمة «دوستويفسكي» وشهرة «بلزاك» ونجومية «ماركيز»، مِنْ غير أن يمتلك أسبابها، أو بالأحرى، أسبابهم.

دعوة خبيثة

يظهر التنابذ بين المتخاصمين في أكثر مِنْ شكل، تشفياً وحسداً، أو نقمة وغيرةً، وفي كل ما يشي بالكراهية. لكن، ثمّة أوجه من البغض مطمورة خلف ادعاءات سلوكية، تبدو كما لو أنها فعل فاضل، حينما يدعو شخص عدوّه أو خصمه إلى وليمة باذخة، أو حفل ضخم، ليستمتع هو وليس المدعو بمقدرته على البذخ والعطاء.

فإذا كنت يا أيها المدعو لا تملك قدرة الردّ على الوليمة بوليمة أضخم، عليك أنْ تتحاشاه لتبقيه في حسرته، ولا بأس مِنْ أنْ تمتنع عنْ تلبية عزيمته المفخّخة، وذلك لئلا تهديه فرصة إشباع عقد دونيته التي لطالما عاش يتندّر الفرصة تلو الفرصة، لإظهار كم هو أحسن وأشطر وأجمل منك. عليك أن تعتذر كي لا تتيح له مثل هذه الفرصة، عندها وعندها فقط يطق بغيظه.

المبدع: عمر أقصر وحياة أطول...!

هل خطر على بالك أن تسأل عن علّة موت معظم العباقرة في سنّ مبكّرة.

لعلّ الإجابة هي ببساطة استنفاد أو استهلاك المبدع حياته في مدّة أقصر مِنْ عمر عامّة الناس.

اقتراح عملاني

ثمّة في الحياة خياران اثنان، لا ثالث لهما، فإما أن تستمر منغّصاً أو مكدّراً مِنْ ألم استشعارك أوجاع الآخرين، وإما أنْ تشمّر الساعد وتنغمس بالأحوال التي آلمك الشعور بها، الحالة الثانية أهون وأنجع، بالطبع.

الحياة أقصر مما تظنّ

من آمن بمحاسن الحياة ومباهجها، هو شخص بائس، ليس بسبب إيمانه هذا، بل لإقباله عليها بصدق وتلقائية لا تلبث أن تذوي، هذا إن أحب مثلما لا يحبّون، وإن رفض ما يقبلون.

فالسواد الأعظم من البشر ينضوون في نسق علاقات اجتماعية،

تطفح بالتواطؤ والتنافس، بالحسد والكراهية، وبكل ما يجعلهم يعيشون إزاء أقرانهم، أي بالضد منهم، فبالنقمة والغيرة يحيا عامة الناس من دون أن يعيروا أهمية إلى ما تريده ذواتهم المستلبة إلى هذه اللعبة المقيتة.

المبعدون وحدهم يعيشون الإجابة على سؤال منسي مِنْ فرط بداهته.

ماذا أريد أنا في حياتي القصيرة؟ وماذا عليّ أن أفعل أيضاً؟ وفي هذا الصدد، يجدر التذكير بأنّ الإبداع، ليس قراراً إرادوياً، إنما هو نتيجة حساسية مفرطة لدى بعض مَنْ تجرأ على مخالفة المشيئة الصارمة لإله الناس وجبروتهم...، عفواً جبروته!!

نكهة النصّ

الرسامون، والرسامون وحدهم يستطيعون رسم اختلاجات النفس واضطرابات العاطفة، عبر ألوان وخطوط تحاكي الحالة التي تُحسّ ولا تُفهم، ذلك أن فنانين مثل «ميلان كونديرا، وأنطونيو منيوز مولينا» هم الأقدر على رسم الأشخاص والأحداث أيضاً، بأسلوب شاعري يتصف بالشغف الذي يجعل البعض يغتبط بما لا يفهم.

هوذا السرّ الذي يضفي على الروايات المميزة نكهة روحية خالصة...!

كلمة الله بين المسيحية والإسلام

لعلّ الفرق بين المسيحية والإسلام، يتمثل بالفرق بين كلمة الله المجسدة روحاً في شخص يسوع المسيح من جهة، وكلمة الله المنزلة هي نفسها في القرآن الكريم عبر النبي محمد كرسول، مبلّغ ليس إلّا؛ من جهة ثانية، فما يوازي القرآن إذاً، ليس الإنجيل، إنما يسوع المسيح الذي أتاح لتلامذته أنْ يؤولوا تناقضات سلوكه الإنساني على النحو الذي سمح باختصار عمره المديد في مبدأ المحبة والتسامح، تماماً كما استُنطق تعاليه في قول: «ما لله لله وما لقيصر لقيصر...»!!

بينما نجد في المقابل، ثمّة إحكاماً صارماً في الكلمات المنزلة في كتاب الإسلام، أعاق تأويل المعنى بما يتلاءم ومصلحة اللاحقين، فبقي لسنّة النبي - قوله وفعله - دور تفسيري أدّى إلى أنْ تتفترّق الأمّة إلى اثنتين وسبعين فرقة، والآتي أعظم.

إسخر مِنْ نفسك

يكفّ الإنسان عن السخرية من الآخرين، حينما يفقد شغفه ويذوي حماسه إلى الحدّ الذي صار يدرك فيه، كم أنّه صار هو مدعاة للسخرية والتهكم. وهذا هو الحدّ الأقصى لموضوعية الإنسان الناضج والحكيم.

مبرّر منطقي

أمد الدين ليس مِنْ قوّة حجّته، إنما مِنْ ضعف حجّة الإنسان حيال الأسئلة الميتافيزيقية الكبرى!

... العملاني والحسّاس...

ثمّة صنف مِنَ الناس، لديه مناعة تامّة حيال مشاعره. يعمل وفق مبدأ عملاني وحساباتي خالص مِنْ أي إحساس قد يعيق مبتغى وصوله إلى السلطة أو تجميعه للثروة.

أمّا الصنف النقيض، ممن لديه إحساس فائض عن الحد المعقول، فتجده غارقاً حتّى أذنيه في البحث عن السبيل الأمثل لتبديد سوداوية طغت عليه، حتى صارت كل الأشياء هينة عنده.

والخلاصة: مَن يفقد إغواءات المال والسلطة، إمّا أن يصبح فناناً مغموراً أو شحاذاً مشهوراً.

التمثيل وانفصام الشخصية

سرّ الممثل المبدع ليس من تعلمه لتقنيات تقليد الشخصية، ولا في موهبته في تأدية الدور بذكاء عال.

تبقى هذه عوامل مؤثرة في الجودة والمستوى، لا في السبب الكامن في ما أنعمه الله على إنسان قادر على تحوير الشخصيات وتمثيلها ببراعة تبعث على التساؤل عمّا إذا كان انفصام الشخصية نعمة أم نقمة؟!

استشراف عسير

ذهب نيتشه بعيداً في افتراضه، حينما قال: «الصحافة، الآلة، السكّة الحديدية، التلغراف، كلها تباشير لم يجرؤ أي أحد على استخلاص ما سينتج عنها بعد ألف سنة». ولما كنا قد أفدناه في المرّة السابقة عن حصيلة المئة سنة الأولى من بعده... مِنْ أهوال حربين عالميتين... إلى فظاعات أنظمة إشتراكية فرضت على الناس عدلها بالمقلوب، مع ما تخلل تلك المرحلة من تطور تقني وتكنولوجي، وإنْ بوتيرة متوازنة مع مدارك عقل الإنسان.

أما اليوم فثمّة انقلاب نوعي، أحدثته وتيرة التطور السريع لتكنولوجيا الاتصالات والمعلوماتية، بحيث لم يعد يصحّ الكلام عَنْ تباشير، لألف سنة مقبلة، ولا لقرن، ولا حتى لعقد، أمام ما يعيشه إنسان اليوم من عجقة مؤثرات، يرزح فيها تحت مصبّ دفق اختراعات تكنولوجية، أنسته حقيقة نفسه، وصار ضائعاً في البحث عن ضالته الإنسانية بين ركام العصرنة والحداثة.

وأكاد أن أجزم لك بأن «الكتاب» بات شكلاً تعبيرياً متخلفاً عما يستجديه جيل العولمة، جيل العصر من سهولة في قراءة المكتوب، عفواً الاستماع إليه عبر شاشات (آي باد)، لعلهم سيستعيدون لك صورة ثلاثية الأبعاد، لكي تحكي أنت لهم، باختصار، «هكذا تكلم زرادشت».

أعتذر منك لعدم استشرافي تباشير السنة المقبلة...!

مغزى تفاحة الجنّة

أجلس فوق وحدي، لا أناجي مَنْ بقربي، أنظر إلى مَنْ يناجيه في الأسفل، حيث الشياطين وبعض الأبالسة، ثمّة نادمون وقد أُقحموا في التجربة، تجربة الامتناع عن أكل التفاح، تكفيراً عن ذنب تفاحة الجدّ الأوّل.

أرى فئة ذاقت لذّة التجربة، فقرّرت المعصية، الفئة الثانية لم تستطب طعم التفاح، فرضخت لمشيئته، أمّا الفئة الثالثة فتختلس ما طاب لها، بغفلة منّا!

الديانة الشيوعية!

تعود شهرة ماركس إلى الحيّز الهشّ مِنْ نظريته، فلم تعوّل

الجماهير على ماركس الاقتصادي، ولا يهمها ما إذا كان جدله المادي منطقياً أم لا، تبنّت منه ما تحتاج إليه من اشتراكية مأمولة، وبذلك اختزلوه إلى ما صيّره نبيّاً، تنبأ بما فعلوه... وأقصوا منه كل ما يتعارض مع زيف إيمانهم بوكلائه الحصريين، لينين، وستالين، وماوتسي تونغ الخ...

فالشيوعية حلم جماهيري قديم، عمره من عمر ما وعدت به الأديان الإبراهيمية بجنّة، أعادت الشيوعية بناء حلّتها بثوب مادي على الأرض، لا في السماء.

إحذر الخلط، أتكلّم عن الشيوعيين، لا عن المسيحيين ولا عن المسلمين.

كيف تذوي الروح

بطء انفعالاتك الحسيّة، مردّه إلى تقدّم السنّ. ترتسم على وجوه الكبار ضحكة «صفراوية»، على ما يقهقه لسماعه صغار السنّ. فالتجربة استنفدت من الكبار عنصر المفاجأة.

غابت الدهشة فأصيبوا بالملل.

لكل منيّة سببها

يموت الفنانون، ساعة يذوي شغفهم ويذبل، عندها يقرّرون أنّ الحياة قد انتهت.

ألا تزالون حائرين بأمر السبب، سبب عدم «تعمير» (مِنْ عمر) المبدعين؟!

تحية إلى «موزارت»

ثمّة مَنْ يسأل عنْ الذي أوعز إلى «موزارت» لكي يكتب كونشرتو قدّاسه الأخير. أهو شبح الموت، أم استشراف نبوئي لمصيره؟. أم قرار بالرحيل تعزّم عنده بقوّة، بعد أن أبدع خلال خمسة وثلاثين عاماً في حياة قصيرة، عاشها بزخم تأليفه لـ 560 عملاً موسيقياً رائعاً؟

مات «موزارت» مريضاً على نحو ما يموت الكثير مِنَ المبدعين؛ لعلّه قرّر أنْ يمرض ليرحل فقيراً بائساً مع سرّ انطفائه بطريقة تليق بالعظماء الحقيقيين.

باختصار، «موزارت» دفق عطاء، نضب لحظة مات.

فكاهة «تشيكية»

وجد «ميلان كونديرا» أن السبيل الأنجع لتبديد كدر حياته التي

وجهها الحزب الشيوعي في وطنه تشيكيا، ونظمها وتحكم بها على نحو ما قرّره القيمون على نظامه باعتبار أن ما يقرّرونه هو الخير الأعظم للجماهير، أن يمزح عبر رواية فيها مِنَ التهكم والسخرية قدر صرامة خضوعه إلى سلطة ديكتاتورية وغاشمة، لأنها كبّلت عقل الناس في نطاق التزامات، لا تُطاق.

مع أنه يكفي الالتزام بشروط الحياة الحرّة لنسخر من وجودنا المنقضي فيها، فكيف إذا ما أُضيف إليها التزام فوق التزام؟.

نبوءة «نيتشه» نبوغ أدّى الغرض

لربما أعلن «نيتشه» نبوءته مِنْ خلال استلهامه لمفهوم «العود الأبدي»، ولا بأس إنْ أثار زوبعة نقاش حول الغاية مِنَ التبشير بافتراض، لا يُمكِن أن يُثْبت علمياً.

بهذا المعنى، فليصمت المشككون الذين يبحثون عن التثبّت من علمية قول نبوي!

«غويا» إذاً ليس نمطياً

أهي مفارقة أن يرسم «فرانشيسكو غويا» موقفه مِنَ الحياة، عبر لوحات، دمغها بحسّ سوداوي ـ تشاؤمي واضح في معظم رسوماته التي ختمها برسم لوحة لامرأة حلوة، تبعث هي على الأمل بحياة بهيّة

ومشرقة؟ لعلّها كذلك. ولعلنا نحن مَنْ قرّر أن يرسم غويا في صورة نمطية لأحاسيسه ومواقفه وأيضاً مزاجه الفنّي.

الفرق بين الشاعر والمجنون

عندما تصل في استغراقك إلى أنْ ترى الصنوبرة التي تستظلّ بفيئها، تنظر إليك بعيون أكواز تدلّت مِن أغصانها، هذا يعني أنك أصبت بخواء وجودي مِنَ النوع الذي يصيب أصحاب الأحاسيس المفرطة في إنسانيتها، وهذا لا يخيف.

أما إذا قرّرت بأنها تطردك من تحتها بالغصن الذي سقط على رأسك توّاً، تغدو المسألة مُقلقة على صحتك النفسية.

هوذا الفرق بين الشاعر والمجنون.

هل الانتماء معوق إبداعي؟

هل غُش «لوي اراغون» بالشيوعية؟ أم أنّه ظنّ فيها ملاذاً مناسباً لاستشعاره بؤس الفقراء وشقاءهم؟ في كلا الأمرين، ثمّة اعتقاد لديه بيوتوبيا واعدة تبعاً لما هو أفضل.

وهذا ما أدّى بنصف فناني المعمورة ومعظم مفكريها إلى الصدمة بالشيوعية، وهي صدمة إيجابية لأنها فجّرت فيهم إبداعاً مضاعفاً، ساهم في تعزيز تهكمية «كونديرا»، وشاعرية «اراغون»، ووجودية

«سارتر»، وتكعيبية «بيكاسو»، على سبيل المثال، لا الحصر.

أعلينا شكر الشيوعية، لأنها أثارت نقمة المغشوشين بطروحاتها الطوباوية، فأبدعوا؟ أم لا؟

لا أدري...!

قليل مِنَ السم يفيد في تقوية المناعة

قليل مِنْ سمّ المعتقدات الاجتماعية البالية، يفيد في تقوية مناعة ابنك أو ابنتك ضد كل ما مِنْ شأنه أن يعرضهما إلى أذى الجماعة المتآلفة حول ما اتفقت على أنه الأنسب للصالح العام؛ ولا يهم ما إذا كان خاطئاً أم لا، فالأهم أن تأمن شرّ الخروج عن سرب الجماعة.

أعرف امرأة ربّت أولادها على ما تعلمته في كتب الصحّة النفسية للأطفال، فكان لتفرّدها بهذا، أنْ جعلتهم عرضة للاستغلال والاستهزاء مِنْ قبل محيط يتعيش على الحسد والضغينة.

هل لك أن تتصوّر معاناة ولد شبعان، وسط أطفال جوعانين.

كيف أن الجلّاد هو أيضاً ضحية ضحاياه

لا تعليق على ما قاله «القصبجي» للشاعر «أحمد رامي» ذات مرّة، موضحاً سبب الغضب المفرط الذي ينتاب المطربة «أم كلثوم»

بين الحين والآخر. «أوتعلم كل هذا التهليل الذي ينطلق فجأة مِنْ بقعة معتمة أمامها، كل هذا التصفيق، هذا هو الشكل الأوضح لعنف ما، جسدها يتلقفه ويختزله ليلة بعد ليلة، ولكن لا بدّ لهذا المقدار مِنَ العنف أنْ تردّ به كما تلقفته».

إذا كانت المسألة كذلك. ماذا عن «هتلر» إذاً؟

أرأيتم زعيماً جماهيرياً لم يبطش بجماهيره؟

ألأنّ الجماهير شحنت قائدها بطاقة التصفيق العنيف لخطاباته، استحال عنيفاً معها في مواقفه وردوده؟

إنه سبب وجيه، لكن، لا يكفي وحده لتفسير العقد النفسية للديكتاتوريين، ولا لأنصاف الديكتاتوريين ممن تسخن رؤوسهم وتزبد أفواههم بكلام ناري سمج، ساعة ينظرون إلى الجماهير المحتشدة أمام منصّة خطاباتهم.

ارحموهم يا أيها الجماهير، أو بالأحرى ارحمونا منهم.

مزاج خريفي

مشهد البحر في مساء خريفي صافٍ، أيقظ في نفسي إحساساً غريباً بمتعة حياة، لأ أزال أنتظر نعيمها. منظر ساحر إلى حدّ يمكن أنْ نحوله إلى واحد مِنْ أساليب تعذيب مجرم محكوم بالإعدام، بسبب ارتكابه لجرم مضاعف.

فعلى كل محكمة لم تلغ مثل هذه العقوبة الشنيعة، أنْ تتمّم انتقامها وتميت كلاً بحسب جُرمه. واقتراحي أن ثمّة أشخاصاً يموتون عشر مرات إذا ما أرغمتهم على أن يروا ذاك المشهد الخلاب. فيموتون حسرة...، ويموتون ندماً...، ويموتون غيظاً، ويموتون غضباً... الخ.

رائحة البحر

تفوح من البحر رائحة غريبة، لكنها أدسم مِنْ أن تبحث عن أسبابها على اليابسة.

عن الخريف أيضاً

هدوء أمواج البحر في فصل الخريف، يسكنها هيجان شتاء كامن في النسمات التي لفحت شعوري بصقيع جواني، رغم حرارة الشمس الحارقة.

ذكاء جدلي بين
الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان

لفتني قول معاوية بن أبي سفيان: «شجاع إذا ما أمكنتني فرصة، فإن لم تكن لي فرصة فجبان». ليس لأنه اكتنه سرّ الرذيلة والتقى في

الذات الإنسانية الواحدة، ولا لأنه يكشف عن مراس وخبرة ذكية في أصل الأخلاق وفصلها؛ إنما لسعة ثقافته ونديتها مع ثقافة عدوّه الموسوعي الإمام علي الذي قال مرّة: «أولادكم ليسوا لزمانكم فلا تخلقوهم بأخلاقكم». إنه قول جدلي يصلح نبراساً للتربية العصرية وما بعد العصرية.

فكلاهما لديه حِكَمٌ وأقوال مأثورة، تجاوزت السياق الزمني لمرحلتهما إلى ما يعبّر عن نفاد عقليهما إلى جوهر المبادىء والقيم الإنسانية، ليفضحا ما يعتريها مِنْ علل متربّصة بطبيعة اتخاذها قيماً ومبادىء ثابتة.

سقراط استجلب أفلاطون ومِنْ ثم أرسطو في الفلسفة. هتلر استولد ستالين في جنون العظمة؛ وبهذا المعنى أستسمح نفسي لأقول: نبوغ الإمام وعصاميته استجلبت خصماً سياسياً ذكياً مثله، لكن مع بعض الدهاء.

استغراق مأتمي...

تغيب الشمس في البحر، مخلفة وراءها ظل شروقها على عالم غريب وموحش، لكنه فسيح، وهو أوسع مِن المكان الذي أعيش فيه زفرات ضيق وجودي، ذلك أنّ استشعاري وحشة تلك الأمكنة هناك خلف البحار، لا تُقاس أبداً على إحساسي بغياب شمسي وانطفائها إلى الأبد.

القبض على الأرواح

لو كان الموت انطفاءً وليس من بعده بعث جديد، ولا حساب، لأوكل الله مهمّة القبض على الأرواح إلى ملائكة الجنّة وليس إلى أبالسة وشياطين...!

قليل من السخرية يفيد

تجنح المرأة إلى التسلية بأكثر مما يحتمل الرجل استهزاءها بجديته؛ فهي إذاً، أكثر إدراكاً منه في التخفيف مِنْ كدر المسؤولية المترتبة على زواج يحتاج إلى السخرية عند العسر، والى التهكُّم عند الفرح، عندها وعندها فقط يمكن أن تتحمّله.

تمرين على فهم السوريالية

كتب «أندريه بريتون» وهو واحد من أهم رواد المذهب السوريالي يقول: «إنّ السوريالية كاسم هي تلقائية روحية خالصة، يتمّ اللجوء إليها مِنْ أجل التعبير لفظياً أو كتابياً أو بأي طريقة أخرى تجعل مِنْ كل توظيف يُملَى عن طريق الفكر، بعيداً عن رقابة العقل، ومن دون اهتمامات جمالية أو أخلاقية... ترتكز السوريالية على لعبة التفكير المنزّهة عن أي غرض»... الخ».

كمثل ما خطر على بالي أنْ أقول: «عاشت السوريالية ماتت السوريالية». هل مِنْ سوريالية أكبر مِنْ هذا الإعلان؟ وعلى هذا المنوال هل لك أن تذكر لي أيها القارىء أغرب صورة سوريالية شاهدتها في حياتك، غير افتراضك لقبرّة وهي تهاجم فيلاً ولّى بالهرب مِن جبروتها... وغير تخيلك لشيطان يمدّ يد المساعدة لإنقاذ طفل من الغرق على مرأى من عشرين ملاكاً يرتدون زياً أبيض.

أثمة سوريالية أغرب منْ أن يعاني أكثر من ثلاثمئة مليون عربي مِنْ بطش وعدوان أربعة ملايين إسرائيلي.

هل من مفعول رجعي للضغينة؟

إذا انتبهت إلى أنّ ثمة حقداً تربّى بالقرب منك مع أقرباء لك، ستصيبك ضغينة لها مفعول رجعي، طولها بطول المدّة التي قضيتها صافي النيّة.

الإنسان كائن مجرم

دلّني على رواية لـ «دوستويفسكي» لم تقرأ فيها جريمة حصلت أو تكاد أنْ تحصل. رواية «الزوج الأبدي» بدت فيها رغبة القتل عند الزوج المخدوع متربصة بمصيره.

هل يعني لك هذا شيئاً؟ التحليل النفسي يعتبر أن الكاتب مهجوس

بالجريمة؛ أمّا هو فكان أخبث مِنْ أن يترجم رغبته بفعل جرمي، إذا ما توافر له سبيل ليرتكبها على الورق عبر تصوّر دقيق وأسلوب رائع. هذا هو حال الإنسان بحسب تعريف «دوستويفسكي». كائن مجرم، إما بالقوة وإما بالفعل.

أو بالأحرى، إما مع سابق الترصّد والتصميم، وإما بالتواطؤ وإما بالنيّة، أو بـ... الخ.

مِنْ أوهام العشق...

للسخط أيضاً، مفعول رجعي، عندما تجلد نفسك على ما كنت تظنّه حباً وخاب، بعد أنْ تركتها أو تركتك، هذا لا يهمّ، وقد أحبّت شخصاً آخر، قبل الأوان، أي قبل أن تنقضي مدّة تطهرها مِنْ علائق عشق مفترض، عادت وأدارتـه ناحية حبيب جديد ذي مواصفات جعلتك تكره نفسك على ما كنته في نظرها...!

من هو الفيلسوف؟

الإنسان المُصاب بعلّة الريبة، حتى في أشدّ الأشياء وضوحاً، هو كائن منغَّص بلعنة النبش في عمق الظاهرة.

إنه الفيلسوف.

بين الذوق والعقل

يتبدّل الذوق بأسرع مما يتبدّل العقل، وإلا كيف تفسّر «موضة» الإفطارات الراقصة بين جموع المسلمين المؤمنين في شهر رمضان المبارك.

لوحة سوريالية

أغصان السنديانة تتمايل على وقع نسمات الخريف، وغيوم تقتحم فسحة راعٍ، لا يأبه من بلل المطر. كلب هناك ينبح غرائزياً على ما لا تعرف له سبباً، لأنك لست كلباً. كرسي تنتظر وحدها في العراء أنْ تثمر شجرة تفّاح.

لهذا تجـدني أفكر أن الحياة، ليست بألف خير.

هوذا الخطيب المفوّه

ثمّة أصوات تبعث على الثقة، حتى وإن تلفّظت بافتراءات أو أكاذيب، فهذا لا يهمّ، ما دامت القناعة بها متوافرة أصلاً.

إنطفاء الحنين

لذّة الحنين في الحزن على ما لا يمكن استعادته، على ما لا يمكن استرجاعه من أحداث مضت إلى غير رجعة. ساعتئذ تقف فوق ذات المكان لتناجي طيف حبيب أو عزيز رحل إلى حيث تشعر بوخز وحشة مُرّة من دونه، هذا في المرّة الأولى. في المرّة الثانية تبحث عن أثرٍ منه. في المرّة الثالثة، تنتبه إلى أشجار كبرت وأشجار نبتت. في المرّة الرابعة تعود لتستمتع بمنظر الطبيعة الخلّابة.

الإحساس بالوقت

تمضي السنون بسرعة لهاث البشر وراء آخر الأسبوع أو آخر الشهر أو السنة المقبلة؛ كذلك في السنة المقبلة، يتكرّر الأمر نفسه مع تعديل طفيف، يثبط الهمّة، لأنّه يعبّر عن طبيعة تآكلنا في زمن يقضم منا في كل دقيقة تمرّ شيئاً مِنْ حماسنا وذوقنا وأحاسيسنا التي تذوي هكذا، قبل أن تنطفىء.

إذا أردت أنْ تَعيش أكثر يا أيها المرء، اخرج مِنْ دوامة الركض وراء سراب. واسرح في البراري، علّ عمرك يطول إلى ما يجعلك تملّ مِن الزمن نفسه.

مواصفات إعلامية ناجحة

بعد نصف ساعة من الحديث مع الفتاة، خلُص ربّ العمل إلى رفع التوصية التالية:

ـ فتاة حلوة وجذابة. لديها ملامح مثيرة. لا تفقه في السياسة ولا في الفكر. تنطق بمخارج حروف سليمة. تبتسم على الدوام مِنْ دون داع. موهوبة في الثرثرة، وبمقدورها تعبئة «الهوا» أي فراغات الحديث مع الضيف بكلمات لا معنى لها. وهذا الأهم.

أتوقع لها نجومية كبيرة، مع الأخذ في الاعتبار أنها قريبة معالي الوزير «فلان الفلاني». هل لك أن تتوقع يا قارئي في أنّ هذه المعايير المتبعة، مآل وعي وذوق وثقافة السواد الأعظم مِنَ المدمنين على شاشات التلفزة اليومية؟!

«الانتروبولوجيا» على حق

على ما في النميمة مِنْ بغض، إلّا أنها تنفع في جعل الناس ينهمكون في اختبار معدن بعضهم البعض، حتى وإن جاءت على حساب ما يجب أنْ يهتمّ به كل شخص في عمله؛ فالنميمة تُبعد ضجر الفردانية وتسلّي مَنْ تساكنوا وترابطوا في علاقات اجتماعية، تفي بغرض الاجتماع البشري، حتى وإن نتجت منها آفات، تستحيل جزءاً مِنْ أفراحهم وأتراحهم.

أكثر ما افتقدت إليه خلال إقامتي لخمسة أيام في السويد، هو النميمة التي أعاني مِنْ وفرتها المَرَضية في مجتمعي.

«همنغواي» كائن شغوف

قتل «أرنست همنغواي» نفسه، مخلفاً وراءه زوبعة من التكهنات حول علّة انتحاره، فمنهم مَنْ ردَّها إلى اضطرابات نفسية، ورثها عن سلالته، ومنهم مَنْ عزاها إلى وَلَعِه بالقتل، قتل الأسود والبقر الوحشي، ولَعَه برؤية دماء الضحية تسيل من الثور في حلبة مصارعة الثيران، فقرّر أن يذهب بهوايته المحببة إلى حدّها الأقصى، ليذوق هو نفسه طعم الموت عند ضحاياه، أراد أن يستشعره كما هو، فبَعدَ أنْ اغترف حلو الحياة وجرّب مرّها، لم يعد أمامه إلّا أنْ يذوق طعم تجربة موته الخاص والفريد، لمرّة واحدة لن تتكرّر عند غير البوذيين والهندوس.

نسي أصحاب الرأي أنْ يضيفوا تفسيراً آخر لانتحاره، ألا وهو خسارة همنغواي «للشغف». ذلك أن ثمّة صنفاً مِنَ البشر لا يهتم إلى ما سيصيره عند الكبر، حكيماً يسدي النصائح إلى شبّان صغار ممتلئين بالحيوية والحماس.

حينما يذوي الشغف ويذبل عند بعض الناس، تموت الحياة فيرحلون.

يبقى السؤال: هل أن المزاج المتقلب واضطرابات المشاعر، سبب للشغف أو نتيجة له؟!

«بودلير» ليس أحمق

غريب أمر «بودلير»، فهو لم ينتحر، مع أن لديه سبباً وجيهاً جداً لهذه الحماقة، غير مرضه، أليس هو مَنْ كتب «أزهار الشرّ».

بين «نيتشه» و«طاغور»

كل مَنْ يدخل في مقارنة بين شذرات نيتشه المكتوبة في «ما وراء الخير والشر» وشذرات طاغور في «طيور شاردة» يدرك الفرق بين الفيلسوف والشاعر، مع أن لكليهما حكمة، ثقيلة عند الأوّل، وخفيفة ـ لطيفة عند الثاني.

لهذا نجد طاغور شاعراً حكيماً، أمّا نيتشه، فليس سوى إنسان مفرط في إنسانيته.

«نيتشه» وهذياناته الشعرية

جرّب نيتشه أن يكتب شعراً فزفر بهلوسات أوجاع مجنون، يهذي بكلمات وشت بسخط إنسان، لم يعد يطيق السير مع قطعان ينبذون مَنْ لا يُطأطيء رأسه في الأرض مثلهم، مَنْ لا يسير على عماه إلى حتفه.

جنون «نيتشه» الأب والابن

أيحق لنا أنْ نستمر في التكهّن حول سبب جنون نيتشه قبل سنة من وفاته، إذا عرفنا أن أباه قد مات الميتة ذاتها، مجنوناً، كذلك أيضاً قبل سنة مِنْ وفاته.

مع أنه ثمّة فرق أكيد بين الأب والابن، لا في وفاة أبيه المبكّر عن ست وثلاثين والابن عن ست وخمسين سنة، ولا في أن الأول كان قسيساً لوثرياً، والثاني صار ملحداً بالمسيحية وربّها. إنما في السبيل الذي أشهر فيه «نيتشه» الابن ظنّه بمبادىء معاكسة تماماً، مع أنها تحوي كل عناصر الإيمان بذاته، عناصر اعتقاد أبيه بمسيحية، جنّ مِنْ فرط الإيمان بها، بينما جنّ الابن مِنْ فرط الإلحاد بها، أو بالأحرى الإيمان بضدها.

أما بعد، هل مِنْ داع للبحث عن تأثير وراثة الخلايا العصبية لموت الابن والأب مجنونين.

منظر غشّاش

ابحث في كل امرأة جميلة عن البشاعة التي تخفيها خلف تبرّجها بزينة مِنْ شأنها أن تحجب علّة استلابها للمظهر على حساب المضمون. مرّة واحدة خاب ظني. لأكتشف أنني أمام رجل مخنّث.

القرن الواحد والعشرون
طروحات عسيرة تنذر بالانفجار

مشكلة النشء الصاعد في زمن حداثة الاتصال والتواصل التكنولوجي، تكمن في أنه يريد ما لا يستطيع الحصول عليه...، لا سيما وأن كل الرغبات صارت في متناول نظره؛ المال، الشهرة، النجومية، الطائرات، السيارات، مجون السهر، صخب الترحال والسفر، من دون أن يتوافر أمامه سبيل الوصول إلى هذه المبتغيات التي ما لبثت أن تحولت عنده إلى غايات أسمى مِنْ أي هدف آخر.

ولأن عيش الحياة على هذا المستوى الفاخر، بات يقتصر على قلة قليلة من الناس، لم يعد من خيار أمام الأكثرية الساحقة لجيل العولمة، سوى: إمّا الاختناق بغصة مميتة، وإمّا الانفجار والتشظّي على شاكلة ما نراه تفلتاً عشوائياً من كل روادع القيم الأخلاقية، وذلك تنديداً أو استنكاراً لعدم وجود إنصاف في هذا العالم.

فقط أصحاب الأحاسيس المفرطة في حساسيتها يلجأون إلى حلول انتحارية، تجا منها بعض ممن أصيبوا بعلل نفسية أسوأ.

يبقى السؤال: هل أنّ صرخة القرن الواحد والعشرين ستبقى مخنوقة بصمت الأجيال التي لم تعد تجيد النطق بغير كبس أزرار الكومبيوتر؟

سبل الخلاص من نفق الكآبة

تتعدّد أسباب الكآبة في شروحات علماء النفس والمحللين للعلّة التي تصيب الإنسان بشلل ذهني وبدني، يفقده حماسة الخروج من قوقعة الانطواء على نفسه.

هوذا إحباط ما بعد الخيبة، عند كل مَنْ يملك حساسية فائقة حيال الآمال الصادقة التي علقها يوماً على ما اعتبره قضية حياة أو موت. بهذا المعنى، فإن حصل وأخفق المرء في تحقيق مراده، سيرتد عليه الفشل وهناً أو عجزاً قاتلاً، حجمه بحجم اندفاعه، للمراهنة المطلقة بكل ما لديه، بفؤاده ووقته، بعقله وبدنه، بأحلامه ويقظته، بليله ونهاره، على مبتغى، احتمال ربحه لا يقلّ عن احتمال خسارته.

أما إذا اعتبرنا أن الحياة زاخرة بالتناقضات، وهي ليست سوى رحلة تجارب عديدة ومتنوعة، يتخللها إخفاق هنا ونجاح هناك، انكسار وانتصار، فعلى البشر أن يتحصنوا من مفاعيل خيباتهم فيها، بتوقع الأسوأ، وبالخوض في مرّها وحلوها، كما هو الحال، لا كما يتمنى الحالمون أن تكون... مزهوة في رؤوسهم بالفرح والسعادة، بالعدل والإنصاف، وبكل ما يجعل بعضنا هشاً أمام الإخفاقات والمرارات، هشاشة ريشة في مهبّ الريح.

تتفاوت حدّة الاكتئاب العرضي عند السواد الأعظم من الناس، بحسب مستوى الآمال المعلقة على مسألة ما؛ أما المعتلّون بكآبة

متجذّرة، فهم من صنف الأشخاص الساخطين على قدر ولّادتهم في عالم بائس أبداً. ليس لدينا أن نقول لهم سوى: إمّا أن تلتهوا عن هذه الحقيقة المرّة بالانغماس أكثر في تفاهة يومياتنا الاجتماعية، وإمّا أن تزفروا وجعكم بصرخة رسم تنديدي، أو شعر استنكاري، أو.. أو.. علّ هذا يؤجل بتّكم في ما هو سوداوي إلى يوم لاحق، ينذر بأمل دائم وجديد...

انتصارات مُريبة

كلّما وقع نظرك على مسميات، مثل ساحة التحرير، أو شارع المقاومة، أو موقف باسمِ شهيدٍ، وهلمجرا من شعارات التحدّي والتصدّي للغزاة المقهورين، عليك أن تتوجس خوفاً من سلطة محرّرين أو مقاومين، نصفهم مات والنصف الثاني أُقصي، ليستتب الأمر، بعد ذلك، لتجار السياسة، ولصنف جديد من الدهاة الذين يجيدون الترويج لهذه البضاعة الرابحة. إنّهم الورثة الوصوليون ممن يبيعون الجماهير كلاماً غرائزياً، بغية الاستئثار بعقول الناس ومصالحها على النحو الذي يؤبّد سيطرة مطلقة لأحفاد المحرّرين.

العبرة المنسية: هو أنّ ما بعد التحرير، أدعى من فعل التحرير نفسه.

العاطفة القوية عاطفة هشّة!

الفتاة التي تعاني في طفولتها من فجوات عاطفية صعبة، ستظهر في صباها عشقاً مضطرباً، بسبب حمأة المشاعر التي تصبّها على حبيبها، دفقاً أعمى وبلا حدود. فتستنفد بذلك، من غير قصد، أسباب استمرارها في علاقة تحتاج إلى تقنين عاطفي، كما إلى الإكثار من الودّ والتفاهم، كي لا يذوي عشقها بالسرعة ذاتها لقوة دفقه الأول.

وبهذا المعنى، عليك أن تأمن شرّ الأشخاص الذين يعانون من انسلاخات عاطفية في صغرهم، فهؤلاء حتماً مصابون بعلّة النّهم العاطفي، يعيشون إزاء حاجتهم الدائمة للامتلاء أو للارتواء بعاطفة تعوضهم نقصاً أو عطشاً عاطفياً عتيقاً، لن يرتوي وهم كبار... إنما يستبان مستوى شحّه، أو الظمأ إليه، من عشقٍ، لن يعيد إليهم أماناً فقدوه؛ فهم ضحايا غرق عاطفي، حالما يخفت... وسيخفت حتماً، يهجرون أحبّاءهم بقسوة تركهم فريسة إحساس لئيم بالحنين إلى ما كانته هي يوم لم يقدّر سخاء عاطفتها المعتلة بعلّة الدفق الأعمى؛ مثل هؤلاء فنانون بالطبع، ولربما ولدوا ليكونوا عشاقاً دائمين.

ولا تنسَ أنْ تضيف إليهم الفتيان، فكلامي عن الفتيات جاء على سبيل المثال لا الحصر.

المحتويات

مقدمة 7
التفاؤل والتشاؤم نزوع حيوي في الحضارة الغربية!! 15
كيف تحولت المرأة سوطاً لجلد ذاتها 16
جرم التفكير بسرّ المقدّس 17
يمين متعقل... أو يسار متهور...!!! 19
يوميات «بودلير» زفير غضب 20
الجنس تدنيس رومانسي!! 20
مشقة الحياة 21
«ألبير كامو» يحزن... لأفراحهم 22
خَطْبُ النساء من خضوعهن 22
جنون نيتشه ضجيج أسئلة 23
التقدّم والتخلّف في ميزان العقل النيتشوي 24
كيف أن الكتابة لا تُعلّم 26
بين الرغبة والحاجة 27
تملّصات ذكية 27
بيروت إصرار مدينة 28
نخبوية «محمود درويش» وشعبيته 28
سرّ تراكم الثروة 29
«دوستويفسكي» فيلسوف علم النفس الأول 30

الإنجاب خلق إلهي عبر المرأة! 31
«نيتشه» مستشرفاً تبدّد الآمال 31
الإبداع وبراعة الاستغلال 32
فرادة الإبداع... من أين؟ 33
منظور الهزل والمأساة 34
فضول مفرط 34
نهار جديد 35
سعادة مُرجأة 36
ريبة «كافكاويه» 36
السلطة غاية بالتأكيد 37
بين عبث «عمر الخيّام» وسخط «نيتشه» 38
«فقاعة» الأزمة الاقتصادية 38
خجل الرجل أقوى 40
ماذا يعني أنْ تعيش... أولاً؟! 40
رغبات الجنس جوع عاطفي 41
الإيمان تفاؤل ثمل 42
ملمح وجودي 43
فرادة الأنا حساسية مفرطة 43
وعود مرذولة 44
ليس من جمال بدون قبح 44
الإبداع توتر نخبوي 45
تمويهات اللغة 45
واحدة من حكم «نيتشه» 46

صدمة الرجل بالمرأة... تمثلات أمٍّ وعشيقة!! 47
الحب والكرم مسميات حقيقة مريبة 48
فلسفة قانونية 49
شفاعة المسيح... عن أية خطيئة تتكلم!!؟ 49
«شوبنهور» ابن أمّه 50
إنجاب المرأة عودة الحقّ إلى صاحبه 51
وجه الشبه بين «إدوارد سعيد» و «فرانزكافكا» 52
هل يولد الإبداع مِنْ رحم اضطهاد عاطفي؟ 53
مِنْ بعد نيتشه: ثمّة معنى جديد للفلسفة كما للأدب 55
الميتافيزيقا وعد مرجأ 56
ليس مِنْ ذي عطاء مجاني 56
قليل من التهور يُشفي 57
للعظماء سخافاتهم أيضاً 58
إحذَر فالمرأة أقوى مما تظنّ 59
بماذا يتسم الراوي؟ 60
سرّ عبقرية «فرانز كافكا» 61
معنى غير إنساني 62
دواء العلّة الوجودية 62
ثمة جروح تلتئم من تلقائها 63
«نيتشه» فيلسوف أخلاقي 63
عن العولمة 64
إرباك «وليام فولكنر» 66
ذبول الشغف 67

تمنيات فاشية 67
ميزان قيمة الفرد 68
علّة التكاثر 69
والنقد كذلك موهبة غير أكاديمية 69
للارتواء حياة واحدة لا تكفي..! 71
ذبح القطعان 70
غباء أكاديمي 71
لا تهب ضعفك... للّه يا مؤمنين 71
لعنة إلهية 72
تيه عصري 73
«الإنسان الأعلى» تصويب نفسي 73
الرواية فيض موهبة وتجربة أيضاً 74
هل شيوعية السوفيات من تشظيات التربية الأرثوذكسية؟ 75
الجمال ومضة وهو قبيح إنْ ربض...! 75
بعد فوات الأوان 76
تعاضد الجماهير يحتاج إلى عدو 76
نزعات غريبة 77
الري العاطفي أدعى... 77
انفعالات خريفية 78
السعادة لحظات انتظار... والخوف كذلك 79
التفكير بالعواقب يفسد عليك لذة الفعل 79
أسطورة «جلجامش» مع الرقم (7) 80
وللسرّ جوره 80

الشعر «ختيار» التعبير 81
خواء ما بعد الولادة كخواء ما بعد التأليف! 81
تعاسة «إدغار آلان بو» وإبداعه 82
صقور الكتابة الناقدة أو الناقمة لا فرق 83
عن «كافكا» ـ مرّة رابعة 84
الفنّان وامرأته المحتملة 84
نصيحة غبي 85
جمال التناقضات 85
فيض الحرمان 86
تجربة لئيمة 86
تشاؤم غير مبرّر 87
الإيمان ترياق شافٍ لعلة الخوف من الموت 87
عود على ذي بدء 87
الأطفال يسألون والفيلسوف يجيب! 88
هوذا «كافكا» 88
المفكّر إداري فاشل 89
منسية «انطوان تشيخوف» 89
يوميات «كافكا» ولذّة التعرية 90
اختبار سيئ لغاية جيدة 90
«كافكا» في صورة غير فوتوغرافية 91
لغز «الميتافيزيقيا» 92
تقلبات مزاج 92
تبجّح ثقافي 93

الغرابة تُحيي العشق والإلفة تميته 93
وخزة «كافكاوية» 94
«سيوران» والوجه الآخر للحقيقة 94
حكمة كبار السن في أوروبا 95
إزاء تهور الشباب في آسيا 95
رواج التنجيم من غباء الناس 96
تحزّب مريب 96
قمع الأنا تهذيب أخلاقي 97
بعيداً عن الخطأ والصواب 97
فيلسوف وديكتاتور 98
سؤال حول اشتراكية «هتلر» 98
شكسبير فيلسوفاً 99
لكل زمنٍ «هتلره» 99
العود الأبدي 100
مصائب السياسة من الحقائق المطلقة 100
رهبة الوجود وجماله 101
نعيم الفقراء 101
وصفة علاج مِنْ داء وجودي 102
الشرّ كمون إنساني 102
رحمة الخالق أكبر 103
كيف رسم «فان غوغ» سخطه في لوحة 104
أيستجيب التاريخ إلى هوى الطغاة؟ 105
الإيمان في ألّا تنام شبعان وجارك جوعان 105

إضاءات نيتشوية

منظار وجودي 106
«جبران خليل جبران» ليس أكثر من نثرات نيتشوية بالعربية 107
حكمة الأديان كلها 107
لكل عمر درسه 108
لذّة مهمّش 108
مطرقة «نيتشه» وفأس «سيوران» 108
أحلام مبدّدة 109
«الفردانية» أصحّ 110
الانتقام من الطفولة الخائبة! 110
ما لا يُستعمل سيُصاب بالضمور 111
الطاغية 111
«نابليون بونابرت» حماس متهور 112
الفراغ الروحي... ماذا بعد؟ 112
الخيبة الوجودية هي الأصعب 113
نيتشه وتكرار الأصل 114
ارتداد الحالم أشدّ 115
ماذا يعني أن تعشق؟ 115
وعد السعادة أجمل 116
مفارقة سياسية... عفواً أخلاقية 117
مشهد تراجيدي آخر من يوميات «كافكا» 119
المصاب الوجودي لـ «شكسبير» 119
طفولة مسؤولة! 120
على الموهبة أنْ تَظهر... ومِنْ ثم تُصقل 120

«كافكا» هذيانات واقعية 121
الحبّ خيبة حتمية! 122
فنّ تحوير الكلام 122
«نيتشه» حلّ افتراضي لمشكلة اللغة 123
الحياة علك للشقاء 123
للعواطف أسبابها 124
الانتماء... ونعمة الجهل 124
إغواءات شيطانية 125
العقل السليم في الجسم المعتل 126
قبل أي شيء... الجرأة شرط الكتابة 126
مفارقة الأخلاق في الاتجاهين...! 127
صقر يطير... ودودة تحبو 127
أن تروي يعني أن تُستفزّ وتتوتّر 128
تفسير تاريخي لصيرورة الرسم 128
كسل المؤدلجين 129
أتفضّل الانطفاء في «النيرفانا» أم الخلود في الجنّة؟! 129
معنى أن تنحاز لأهلك ولو كانوا 130
كآبة متأصّلة 130
هل الانخراط في «المافيا» انتماء أيديولوجي؟ 131
الموت ملاذ المُتعبِين 132
علاج «فينومينولوجي» 133
«فان غوغ» يرسم أحاسيسه 133
«الصرخة الميتافيزيقية» 133
مذاق حضاري 134

«الإنترنت» عصر بلا روح 135
هالة الزعيم 135
الثورات العربية... 136
إزاحة الرابض على صدورنا أولى...! 136
كيف أن التحجّر العقائدي عند اليسار أكثر من يميني 137
شاعرية «نيتشه» الفلسفية تفوق على شعره 137
شطحات سيكولوجية 138
رحابة رسّام 138
ما لن نتعلّمه 138
عتق ذوّاقة التصوّف 139
الاعتقاد أفضل من التعري 139
الإحساس لا يُعلّم...! 140
نظرية غير مُثبتة! 140
لعنة العباقرة... وجه قرابة 141
مِنَ الجنون أن تتوقع مجنوناً 141
سمو الرواية مِنْ تحقيراتها! 142
الرواية صغائر مرذولة 143
«بوذنة» مِنْ «بوذا» 143
أيضاً خيبة تعليق الآمال 143
دعوة خبيثة 144
المبدع: عمر أقصر وحياة أطول...! 145
اقتراح عملاني 145
الحياة أقصر مما تظنّ 145
نكهة النصّ 146

كلمة الله بين المسيحية والإسلام 147
إسخر مِنْ نفسك 147
مبرّر منطقي 148
... العملاني والحسّاس.. 148
التمثيل وانفصام الشخصية 148
استشراف عسير 149
مغزى تفاحة الجنّة 150
الديانة الشيوعية! 150
كيف تذوي الروح 151
لكل منيّة سببها 152
تحية إلى «موزارت» 152
فكاهة «تشيكية» 152
نبوءة «نيتشه» نبوغ أدّى الغرض 153
«غويا» إذاً ليس نمطياً 153
الفرق بين الشاعر والمجنون 154
هل الانتماء معوق إبداعي؟ 154
قليل مِنَ السم يفيد في تقوية المناعة 155
كيف أن الجلّاد هو أيضاً ضحية ضحاياه 155
مزاج خريفي 156
رائحة البحر 157
عن الخريف أيضاً 157
ذكاء جدلي بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان 157
استغراق مأتمي 158
القبض على الأرواح 159

قليل من السخرية يفيد 159
تمرين على فهم السوريالية 159
هل من مفعول رجعي للضغينة؟ 160
الإنسان كائن مجرم 160
مِنْ أوهام العشق 161
من هو الفيلسوف؟ 161
بين الذوق والعقل 162
لوحة سوريالية 162
هوذا الخطيب المفوّه 162
إنطفاء الحنين 163
الإحساس بالوقت 163
مواصفات إعلامية ناجحة 164
«الانتروبولوجيا» على حق 164
«همنغواي» كائن شغوف 165
«بودلير» ليس أحمق 166
بين «نيتشه» و«طاغور» 166
«نيتشه» وهذياناته الشعرية 166
جنون «نيتشه» الأب والابن 167
منظر غشّاش 167
القرن الواحد والعشرون 168
طروحات عسيرة تنذر بالانفجار 168
سبل الخلاص من نفق الكآبة 169
انتصارات مُريبة 170
العاطفة القوية عاطفة هشّة! 171